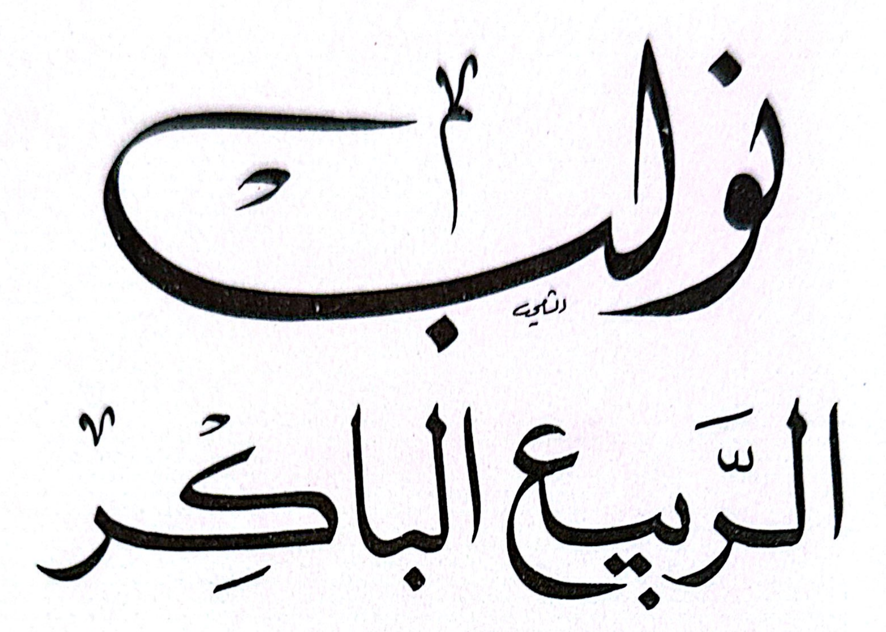


رواية :
هرمان هسه

ترجمة :
كامل يوسف حسين

دار الوسام
بيروت

دار ابن زيدون
بيروت



رواية

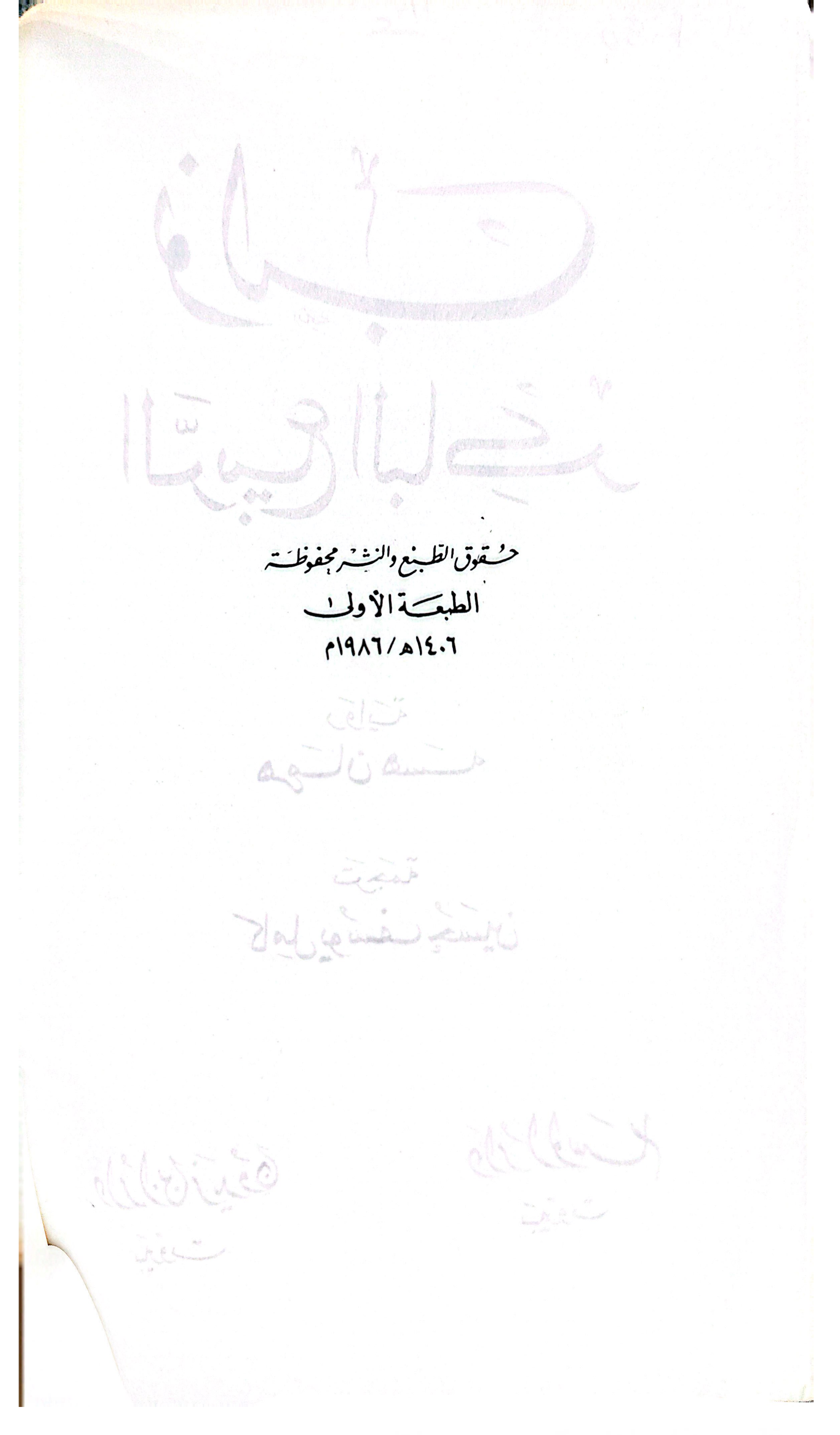
هرمان هسه

ترجمة

كامل يوسف حسين

دار ابن زيدون
بيروت

دار الوسام
بيروت



الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

مقدمة المترجم

لماذا هسه الآن ؟

يبدو هذا السؤال للقارىء العربي مبرراً تماماً ، إذا ما تذكر ، أنه مع وصول هذا العمل إليه ، تكون المكتبة العربية قد شهدت تباعاً ، وفي مدة قياسية حقاً ، صدور أربعة أعمال للكاتب الالماني هرمان هسه ، هي « سيدهارتا » ، « الرحلة الى الشرق » ،« ذئب البراري » . وأخيراً « نولب » الماثلة بين يدي القارىء .

أليس عجيباً أن كاتباً ولد عام ١٨٧٧ ورحل عن عالمنا في ١٩٦٢ بعد أن وصل الى قمة شهرته عام ١٩٤٦ ومارس أقصى تأثير له على الأدب العالمي في صدر القرن الحالي يطل بهذا الحضور المتوهج على الساحة العربية وكأننا اكتشفناه لتونا فحسب ؟

إن طرح السؤال بهذا الشكل لا يقترب بنا كثيراً من الامساك بمجموعة الحقائق المراوغة ، التي تختفي خلف علامة الاستفهام ، التي تصدرت هذه المقدمة ، لأن هذا الطرح يتجاهل النقطة الأكثر جوهرية هنا . فقد سبق للقارىء العربي ان عرف هسه ، في مرحلة مبكرة ، وأحب أعماله ، ربما لأنها ـ بالمقارنة بأعمال غيره من رواد الرواية العالمية ـ تنطلق من أشكال تقليدية ، بمعنى ما ، لترحل نحو تحقيق أهداف الكاتب المركبة ، والغامضة ، والمستعصية على محاولات التبسيط .

لكن الحضور المتوهج اليوم لهسه ، على الساحة العربية ، يبدو طبيعياً ومنطقياً ، في هذه المرحلة ، إذا ما تذكرنا أن اسئلة مثقلة بالهموم ترفرف حول الروح والعقل العربيين في غمار تصديها لقضية الحداثة .

إن الحقيقة المذهلة حول هسة الشاعر، والقاص، والرسام ، والروائي في المقام الأول ، هي أن الرجل يتكشف لنا عن عقلية « شديدة الحداثة» . ويتمثل ذلك لا فيما كان يحاوله فحسب ، وإنما في الشكل الذي حاول به اجتراح مسيرته أيضاً .

بشكل جوهري ، كان هسه يحاول تحقيق نوع من المصالحة بين الأضداد ، نوع من « الرَفْع » المذهل بين الموت والحياة ، بين الروح والطبيعة .

في رواية « بيتر كامينسند » ، نلتقي فلاحاً سويسرياً ، يطير

صيته ككاتب ، لكنه يأبى إلا الرحيل عن فساد الأمكنة في المدن والعودة الى موطنه في الريف ، تماماً كما فعل هسه نفسه ، وكأن هذه الرواية الصادرة في ١٩٠٤ كانت تستشرف آفاق المستقبل . في العام التالي ، تصدر رواية « المعجزة » ، لتسرد أطرافاً من حياة هسه في قالب روائي فريد

وتتعدد محطات رحلة الكاتب في سعيه نحو ذلك التجاوز المراوغ ، الذي ينشده ، فيقدم « روشالد » في ١٩١٤ و « دميان » في ١٩١٩ وسيدهارتا في ١٩٢٢ « وذئب البراري » في ١٩٢٧ « ونرسيس وجولدموند » في ١٩٣٠ و « الرحلة الى الشرق » في ١٩٣٢ و « الاستاذ لودي » في ١٩٤٣

وتصل الرحلة ، التي حملت هسه ليضرب في آفاق الشرق الغامض ، الى أقصى قممها في هذا العمل الأخير ، الذي ترجم وعرف عالميا باسم « لعبة الكريات الزجاجية » ، التي هي في جوهرها رحلة سعي مضن وراء الكمال ، وبمعنى ما فإنها لعبة هرمان هسه نفسه . وقد لا تعني اللعبة شيئاً ، بالمعنى الذي قصده يونج ، لكنها تروي لنا بشكل ساحر ، لا يجري فيه قط تحديد اللعبة ولا كشف أسرارها ، ربما لأن تلك مهمة منوطة بكل منا على حدة ، في غمار قراءته الخاصة للعمل .

تنتمي الرواية الماثلة بين يدي القارىء ، « نولب » ، الى مرحلة مبكرة من أعمال هسه ، وهي ترصد في نعومة حياة

جواب آفاق ، يمضي عبر المدن والغابات والقرى الصغيرة ليمنح الدنيا ابتسامة ولحظة صفاء ، ولكن انسيابية العمل ونعومته هي على وجه الدقة الفخ الذي ينصبه لنا هسه ، ولا امل لنا في النجاة من فخ الكاتب المراوغ ، الذي لا يفتأ يطالعنا بالتحديات ، الا إذا حاولنا الأمساك بالأطراف الغامضة للتفسير الكلي للعمل ، التي تصل الى أقصى تجلياتها وأجملها في الحوار الذي تختتم به الرواية .

الآن هل نقبل هذا التحدي ؟

المترجم

الشارقة في ٣٠/٥/٨٣

الربيع الباكر

ذات مرة ، في التسعينيات ، اضطر صديقنا نولب الى
الذهاب للمستشفى ، حيث قضى هناك أسابيع عديدة . حين
تم اخراجه كان ذلك في منتصف فبراير وكان الطقس مقيتاً .
بعد أيام قلائل على الطريق ، شعر بالحمى تعاوده ، فأرغم على
التفكير في سقف يظله . كان له دائماً عديد من الأصدقاء ، وكان
يلقى الترحاب في كل مدن المنطقة تقريباً ، لكنه كان شديد
الاعتداد بنفسه فيما يتعلق بهذه الأمور ، وكان بوسع أي صديق
يتلقى منه نولب المساعدة أن يأخذ ذلك باعتباره مفخرة له .

في هذه المرة تذكر نولب روثفوس الدباغ في بلدة لخشتيتين .
حينما أقبل الليل ، وفي قلب المطر والريح الغربية ، طرق باب
الدباغ ، فرج روثفوس مصراع النافذة قليلاً ، وصاح باتجاه

الشاعر : « من هناك ؟ الا يحتمل الأمر التأجيل حتى الصباح ؟ » .

إبتهج نولب في غمار اعيائه لدى سماع صوت صديقه ، تذكر أغنية قصيرة كان قد نظمها قبل سنوات ، حينما كان وروثفوس رفيقي رحيل طوال شهر ، فشرع في الغناء .

« دخل رجل المنزل ،

بعد ان انقضى النهار ،

هذه الملامح المتعبة أعرفها جيداً ،

فلا بد أنها ملامح الابن الضال » .

فتح الدباغ مصراعي النافذة على اتساعهما ، وانحنى مطلا : « نولب ، أهو أنت أم أنه شبحك ؟ » .

صاح نولب : « انه أنا . . . لكن بوسعك أن تهبط على الدرج . ما من حاجة تدعوك الى القفز من النافذة » .

هبط الدباغ مسرعاً ، وقد غمرته السعادة . فتح الباب الخارجي الصغير ، إضطر نولب الى اغماض عينيه نصف اغماضة ، حينما رفع صديقه المصباح النفطي ، الذي ينبعث منه الدخان عاليا امامه .

صاح روثفوس في انفعال ، وهو يجذب صديقه الى داخل الدار : « الآن هلم الى الداخل ، بوسعك ان تحدثني بكل شيء

فيما بعد ، هناك بعض من طعام العشاء وفراش لك ايضاً ، يا الهي الطيب . . . أي طقس يمكث فيه المرء خارج الدار . . . هل لديك حذاء جيد على الأقل . . . ؟ » .

توقف نولب على الدرج ، متجاهلا أسئلة صديقه ودهشته ، ليفض ثنيات سرواله ، التي كان قد رفعها الى اعلى ، ثم صعد الدرج المعتم بثقة ، رغم ان قدمه لم تطأ الدار منذ اربع سنوات .

في منتصف الطريق، بين الباب والحجرة الكبرى ، تردد ، فحثه الدباغ على الدخول ، لكن نولب أمسك بذراعه ، واستوقفه .

همس : «انتظر، يبدو أنك متزوج الآن ؟ » .

ـ « هذا صحيح » .

ـ « طيب ، لعلك تدرك ان زوجتك لا تعرفني ، وربما لا يسرها أن تراني ، ولست أرغب في أن أكون مصدر ضيق » .

ـ « هو . . هو . . مصدر ضيق . . . » .

ضحك روثفوس ، ودفع نولب الى الحجرة المتألقة بالضوء . فوق مائدة الطعام كان هناك قنديل يتدلى من ثلاث سلاسل ، كانت سحابة خفيفة من دخان الطباق تحوم في الهواء ، وتحلق نفثات خفيفة من الدخان في طريقهما الى المدفأة ،

حيث تنثني متصاعدة ، وتتبدد ، على المائدة امتدت جريدة وكيس حافل بالطباق ، هبت زوجة الدباغ الشابة واقفة من الأريكة الصغيرة ، في الجانب البعيد من الغرفة ، في ارتباك ونشاط لا يمازجه الابتهاج بصورة حقيقية ، بدت كما لو كانت قد أوقظت من اغفاءة ، بينما هي ترغب في ان تخفي ذلك ، للحظة أغمض نولب عينيه باتجاهها ، كما لو كان بريق الضوء قد أعشاهما ، ثم تطلع الى عينيها الرماديتين الفاتحتين ، ومد يديه محييا في مجاملة ودية .

قال الدباغ : « طيب ، ها هي زوجتي ، وهذا نولب ، صديقي نولب الذي حدثتك عنه ، طبيعي انه سيمكث معنا ، وسنعد له فراش مساعدي في العمل ، من حسن الحظ انه شاغر ، لكننا سنحتسي أولا عصير الفاكهة معاً ، ولا بد لنولب من شيء يأكله ، ألم يبق بعض من سجق الكبد ؟ » .

أسرعت زوجة الدباغ تغادر الغرفة ، تابعها نولب بناظريه .

قال بصوت خفيض : « انها منزعجة بشكل ما » . لكن روثفوس لم يوافقه على ذلك .

سأل نولب : « أليس هناك اطفال بعد ؟ » .

هنا عادت الزوجة حاملة السجق فوق صفحة معدنية ، وضعتها الى جوار حامل الخبز ، الذي وضعت فوقه نصف

رغيف نحى جانبه المقطوع الى اسفل ، وعلى امتداد حامل الخبز نقشت كلمات : خبزنا كفاف يومنا أعطنا اليوم » .

ـ « ليز ، أتعلمين ما الذي سألني نولب عنه تواً ؟ » .

قال نولب بابتسامة ، وهو يلتفت ناحية ربة الدار : « لننس الأمر بإذنك يا سيدتي » . لكن روثفوس ما كان لينساه .

ـ « سألني عما إذا لم يكن لدينا أطفال » .

ـ « يا الهي ! » .

قالتها الزوجة ضاحكة ، وغادرت الغرفة من جديد .

سأل نولب حينما خرجت الزوجة : « أليست حاملا ؟ » .

ـ « كلا ليس بعد ، انها تمضي على مهل ، من الأفضل ان تسير الأمور كذلك بالنسبة للسنوات القلائل الأولى ، ولكن عليك بالطعام ، وآمل ان يروق لك » احضرت زوجة الدباغ ابريق العصير ذا اللونين الرمادي والازرق الحائلين ، وضعت ثلاثة اكواب على المائدة ، واترعتها ، كانت حركاتها رشيقة ، راقبها نولب ، وابتسم .

ـ « نخبك يا صديقي ! »

صاح الدباغ ، رافعا كأسه ، ولكن نولب كان رجلاً مهذباً ، قال :

ـ « السيدات أولا ، نخبك يا سيدي ، نخبك أيها الصديق العجوز ! » .

قرعوا كؤوسهم ، وشربوا، أومأ روثفوس ناحية زوجته متهللاً ، وسألها عما اذا كانت قد لاحظت أخلاق صديقه الكريمة .

كانت قد لاحظت ذلك منذ البداية ، قالت :

ـ « السيد نولب اكثر تأدبا منك ، فهو يعلم ما هو سليم ومناسب » .

قال الضيف :

ـ « غير صحيح ، إننا جميعا نفعل ما تعلمناه ، وحينما يتعلق الأمر بالأخلاق فإن من اليسير جعلي أشعر بالعار ، وكم هو جميل النحو الذي أعددت به المائدة ، حتى ليماثل أفخم الفنادق » .

ـ « أليست ماهرة ؟ » .

قالها الدباغ ، وضحك مضيفاً « لكن ذلك أيضاً جرى تعلمه » .

ـ « حقا ؟ أين ؟ هل كان والدك صاحب نزل ؟ » .

ـ « كلا ، لقد توفي أبي منذ سنوات ، ولم اكد اعرفه ، لكني كنت أقوم بإعداد الموائد طوال سنين عديدة في فندق

أوكس ، ربما سمعت عنه ؟ » .

ــ « فندق أوكس ؟ كان ذلك أفضل الفنادق في لخشتيتين » .

ــ « ولا يزال ، أليس الأمر كذلك يا إميل ؟ كان كافة النزلاء تقريباً من التجار والسياح » .

ــ « أصدقك يا سيدي ، ويقيني أنك أمضيت حياة سعيدة ، وجمعت مبلغاً طيباً من المال ، ولكن تملك منزل خاص بك امر أفضل كثيراً » .

بعد أن أزال الجلد ، ووضعه جانباً في طبقه ، قام ببطء وبمهارة واضحة بنشر السجق الرقيق على سطح الخبز ، وبين الحين والآخر راح يتناول رشفة من العصير الأصفر طيب المذاق ، مضى الدباغ يرمقه بتقدير يشي بالاحترام ، بينما يدا نولب الرشيقتان الرقيقتان تمعنان في القيام بالحركات الضرورية برهافة ورقة ، وداخل السرور ربة الدار كذلك ، وهي تراقبه .

ــ « لا بد لي من القول بأنك لا تبدو على ما يرام » .

قالها الدباغ بصيغة الانتقاد ، فاضطر نولب الى الاعتراف بأنه لم يكن في صحة جيدة مؤخراً ، وأنه كان في المستشفى ، لكنه تجاوز الاجزاء المحزنة من قصته . سأله صديقه عما يعتزم القيام به عقب ذلك ، وعرض بحرارة استضافته بقدر ما يشاء ، كان ذلك على وجه الدقة هو ما توقعه نولب ، وعول عليه ،

ولكنه اكتفى - كما لو كان الحياء قد غلبه - بتقديم الشكر الى صديقه ، وأجل مناقشة مثل هذه الموضوعات .

قال في تراخ : « يمكننا الحديث عن ذلك غدا أو بعد غد ، حمدا لله ان العالم ليس في طريقه الى الانتهاء ، على أية حال سأمكث هنا بعض الوقت » .

كان يمقت وضع الخطط ، أو الادلاء بوعود لفترات طويلة مقبلة ، ويشعر بالضيق ما لم يكن الغد ملك يمينه ، يتصرف فيه كيف يشاء .

بعد وقت قصير قال : « إذا كان لا بد لي حتماً من البقاء هنا بعض الوقت فعليك ان تتخذ مني مساعداً لك في العمل » .

قال الدباغ ضاحكا : « يا للكرم ! أنت مساعدي ! انك لست دباغاً ، على كل حال » .

- لا يهم ، ألا تدرك الأمر ؟ إن الدباغة لا تعني شيئاً بالنسبة لي ، يقال انها مهنة رائعة ، لكني لا أملك موهبة القيام بهذا العمل . غير انها ستبدو رائعة حينما ادرجها في دفتر التجوال » .

- « هل بوسعي ان اشاهد دفترك ؟ »

تحسس نولب الجيب الداخلي لحلته الجديدة ، أخرج دفتر تجواله ، وقد غلف على نحو انيق بغلاف زيتي اللون .

تطلع أليه الدباغ ، وضحك قائلا ؛ « بلا بقعة واحدة . . . يبدو كما لو كنت قد تركت أمك صباح الأمس فحسب » .

راح يفحص الاماكن التي وصلها نولب والاختام الرسمية التي تثبت ذلك ، ويهز رأسه بإعجاب عميق ، قال ؟ « يا له من نظام رائع . . . كل شيء بين يديك يصبح موضعه الصحيح » كان الحفاظ على دفتر التجوال في صورة منسقة إحدى هوايات نولب حقاً ، كان دفتره بكماله المتألق خيالاً يبعث البهجة ، كان قصيدة ، كان كل إشعار دخول لمكان موثق رسمياً يحمل دليلاً على محطة مجيدة في حياة شريفة حافلة بالجهد ، وكان الملمح الوحيد الذي يبدو ناتئاً هو عدم استقراره ، الذي تشهد عليه عمليات التغيير في محل الاقامة ، كانت الحياة التي يقف هذا الجواز الرسمي شاهداً عليها من ابتكار نولب ، وبحذق بالغ نسج الخيوط الواهية لهذا المسار العجيب في الحياة ، وعلى الرغم من انه اتى بقليل مما كان محظورا صراحة ، فقد كان يحمل على كاهله وقر الوجود المقيت وغير الشرعي لجواب الآفاق ، وبالطبع ما كان من الممكن ان يمضي دون تضييق الخناق على خياله البديع لولا ان الشرطة كانت تغض الطرف عنه ، واعتاد رجالها التعامل باحترام مع هذا الشاب المرح الودود لذكائه اللماح ولجديته ، وتركوه وشأنه بقدر ما وسعهم ذلك ، ونادرا ما ألقى القبض عليه ، ولم تتم ادانته على الاطلاق بالسرقة او التسول ، وكان له أصدقاء يحظون بالتوقير في كل مكان . ترتب على ذلك

ان السلطات كانت تعامله كما تعامل قطة بديعة المنظر في الدار ، وتركته وشأنه يمضي في حياة لا تعتريها المتاعب ، يوشيها الكسل والروح المترفة .

قال نولب مستعيداً اوراقه : « يكفي هذا في الوقت الحالي ، لو أنني لم أقبل لكنت الآن في فراشك منذ زمن طويل » .

وبانحناءة مجاملة لربة الدار نهض واقفا .

ـ « تعال يا روثفوس ، أرني موضع فراشي » .

أضاء الدباغ الدرج الضيق المؤدي الى غرفة المساعد بالطابق العلوي ، الى جوار الحائط كان هناك فراش خشبي ، رتبت عليه الاغطية ، وله كلة هيكلها من الحديد .

سأل الدباغ بلهجة أبوية : « هل تفضل زجاجة من الماء الساخن ؟ » .

قال نولب ضاحكا : « لا تقل ذلك ، طبيعي أن دباغاً ماهراً مثلك لن يحتاج اليها ، خاصة في الوقت الحالي ، وله مثل هذه الزوجة الشابة الجميلة » .

بحماس قال روثفوس : « تماما ، ها أنت ذا تأوي الى فراش بارد في طابق علوي ، وفي بعض الأحيان قد لا يكون هناك فراش على الاطلاق ، فتضطر الى الرقاد فوق القش ، بينما حرفي شريف مثلي يمتلك داراً وعملاً وزوجة جميلة ، ولو انك أردت فحسب لكان بوسعك منذ وقت طويل ان تصبح حرفياً

مبرزاً في عمله ، وان تفوقني فيما وصلت اليه » . في الوقت نفسه سارع نولب الى نـزع ملابسـه ، وزحف مرتعـداً بين المـلاءات الباردة .

قـال : « إستمر ، إستمـر ، إنني مرتـاح ، وعلى استعـداد للاستماع » .

ـ « إنني أعني ما أقولُ جدياً يا نولب ! » .

ـ « وكذلك أنا ، يا روثفوس ، ولكن عليك الا تضع في ذهنك ان فكرة الزواج هي من ابتكارك ، الآن طابت ليلتك » .

في اليوم التالي ظل نولب في الفراش ، كان لا يـزال يشعر بالضعف البالغ ، وعلى أية حال ما كان له ان يخرج في مثل هذا الطقس ، وفي الصباح ، حينما اقبل صديقه ، قال له نولب الا يقلق بشـأنـه ، وأن يحضر لـه فحسب طبقاً من الحسـاء وقت الغذاء .

رقد طوال اليوم هادئـاً مغتبطاً في العتمـة الخفيفة التي تميـز الغرفة العليا . إنزلق برد الطريق ووعثـاؤه بعيداً عنـه ، فامتـلأ بالشعور بدفء المأوى . أخذ يصغي لصوت المطر المنتظم ، وهو يهطل فوق السقف ، ولدفقات الريح الدافئة اللينة ، وبين الحين والآخر يلفه النعاس لنصف الساعة ، حين يفيق يتصفح أوراق مكتبته المتنقلة ، طالما كان الضُوء كافياً لذلك . كانت صفحات قـلائل من الـورق نسخ عليهـا قصائـد وأقـوالاً ، وحـزمـة من

قصاصات الصحف وبضع صور قصها من المجلات ، كان يؤثر من بين هذه الصُور صورتين ، تجعدتا وحال لونهما لطول تلمسهما ، كانت إحداهما للممثلة اليانورا دوس ، والأخرى لسفينة شراعية صغيرة تمخر البحر ، والرياح تلفها .

كان البحر والشمال يجتذبان نولب منذ نعومة أظفاره . وفي مرات عديدة شرع في سلوك هذا الاتجاه ، وذات مرة مضى حتى برونسفيك ، لكنه في كل مرة كانت تهيمن عليه نوبة من القلق وحنين الى الوطن يدفعان هذا المهاجر ، الذي ما كف يوما عن الترحال وما كان بوسعه ان يستقر في اي مكان ، الى جنوبي المانيا من خلال مسيرات يبدو مرغماً عليها ، بدت عفويته كما لو كانت تغادره حيثما يجد نفسه في مكان يتحدث أهله بلكنة غريبة ، ويمارسون عادات غير مألوفة ، حيث لا أحد يعرفه ، ويتعذر عليه ان يبقى دفتر تجواله الاسطوري منسقاً .

عند الظهيرة جلب له الدباغ الحساء والخبز . دخل الغرفة بهدوء ، وتحدث في همس يشوبه الخوف ، إعتقد أن المرض قد حل ـ لا بد ـ بساحة نولب ، لأنه لم يسبق له هو نفسه على الاطلاق أن رقد في الفراش خلال النهار منذ أيام اصابته بالحصبة والجديري ، ولم يكلف نولب ، الذي كان في حالة طيبة ، نفسه عناء الايضاح ، واكتفى بالقول بأنه سيكون على ما يرام خلال اليوم التالي .

عند الأصيل قرع الباب ، كانت سنة من النعاس قد أخذت نولب ، فلم يرد ، خطت زوجة الدباغ الى الغرفة على أطراف أصابعها ، أزاحت طبق الحساء الفارغ ، ووضعت دلة القهوة والقدح على المقعد الى جوار الفراش .

كان نولب قد سمعها وهي تدخل ، لكنه أبقى عينُيه مغمضتين ، سواء لأنه كان يشعر بالكسل ، أو لمجرد أن ذلك خطر له ، ولم يبد اشارة تدل على انه مستيقظ ، ألقت المرأة الشابة ، وهي تقف هناك حاملة الطبق الفارغ في يدها ، نظرة على الرجل الراقد الذي كانت رأسه ترتاح على ذراعه ، الذي غطته منامته الزرقاء ذات المربعات ، أذهلها شعره السبط الفاحم وحسن وجهه المطلق ، الذي يوشك ان يكون طفولياً ، فوقفت برهة ، وهي ترمق الشاب الوسيم الذي حدثها زوجها بأقاصيص بالغة الغرابة عنه ، رأت حاجبيه الكثيفين على جبينه الرقيق التكوين وخديه الأسيلين ، اللذين لوحتهما الشمس وفمه البديع القاني وعنقه الرشيق، فأحبت ما رأت ، راحت تفكر في تلك الأيام التي كانت تعمل خلالها في فندق أوكس ، حينما كانت تراودها خيالات الربيع ، فتدع غريباً شاباً وسيماً كهذا الغريب يطارحها الغرام .

إنحنت قليلا نحوه ، وقد لفتها الأفكار ، وغمرتها إثارة خفيفة ، لتتملى وجهه كله ، إنزلقت الملعقة المعدنية من الطبق ،

وهوت على الأرض . مع سكون المكـان وحميميته البـاعثة عـلى الحرج ، غمرها خوف مميت .

فتح نولب عينيه ببطء ، ودون تشكك كما لو كان غارقاً في النوم ، التفت اليها ، ظلل عينيه بيده للحـظة ، قال مبتسماً : « إنها السيدة روثفوس . . . وقد جلبت لي القهوة ، دِلـة جميلة من القهوة الساخنة ، الشيء ذاته الذي كنت احلم به ، شكـراً أيتها السيدة روثفوس ، بالمناسبة كم الساعة الآن ؟ » .

ـ « الرابعة » . قالتها على عجل « الآن تناول القهوة وهي ما تزال ساخنة ، سأحضر فيما بعد لأخذ الدلة » .

سارعت بالخروج ، كما لـو لم تكن لديهـا لحظة تهـدرها . أصغى نولب لخطوها ، وهي تهبط الدرج مسـرعة ، تـطلع الى حيث مضت ، شابت الأفكار صفـاء عينيه ، هـز رأسه مـرات عديدة ، ثم اطلق صفير طائر رقيق ، والتفت الى قهوته .

لكنه بدأ يشعر بالسأم قبل ساعة من حلول الـظلام ، كان قـد استرد عـافيته ، واستـراح بصورة رائعـة ، كـان ينشـد من يشاركه شجونه ، نهض من الفراش مغتبطاً ، إرتدى ملابسـه ، دلف هـابطاً الـدرج المعتم بهدوء قـطة ، وغـادر الـدار دون ان يلحظه احد . كـانت الريـح الرطبـة لا تزال تهب من الجنـوب الغربي ، لكن المطر كـان قد تـوقف ، وبدت نتف من الصفـاء تتخلل السحب .

راح نولب يستنشق الهواء ، سار الهوينى في الطريق المعتم، وعبر السوق المهجور ، ثم توقف في الباب المفتوح لحانوت الحداد ، استفسر عن معارفه العديدين في المدينة ، عن حالات الوفاة والزواج ، اعتقد صاحب الحانوت انه حداد ، حيث كان نولب يعرف مفردات كافة الحرف والاشارات ، التي يتعرف من يمارسونها من خلالها أحدهم على الآخر .

في الوقت ذاته ، كانت السيدة روثفوس تعد حساء المساء وتعبث بالدوائر الحديدية للفرن الصغير ، وتقشر البطاطس . حينما انتهت من الاعداد ، وأخذ الحساء يغلي برفق سالماً فوق النار الهادئة ، حملت مصباح المطبخ ، مضت الى الغرفة الكبيرة ، ووقفت امّام المرآة ، ألفت في صقالها ما كانت تهفو اليه : وجهاً بدرياً ذا خدين متوردين وعينين رماديتين ـ زرقاوين ، لم يبد شعرها منظماً تماماً ، فأعادت اليه تنسيقه بلمسة او لمستين من أصابعها ، جففت يديها اللتين غسلتهما منذ لحظات فحسب مرة أخرى في منديلها ، التقطت المصباح ، ومضت مسرعة الى الدور العلوي .

طرقت باب غرفة المساعد ، برقة في البداية ، ثم بصوت اعلى قليلاً ، حينما لم تسمع رداً ، وضعت المصباح على الأرض ، وفتحت الباب بكلتا يديها بحذر بالغ ، حتى لا يند عنه صوت ، ثم دخلت على اطراف أصابعها ، خطت خطوة ، مرت بيدها فوق المقعد الى جوار الفراش .

ـ « أنائم أنت ؟ » .

تساءلت بصوت لين ، تم ـِة اخرى :

ـ « أنائم أنت ؟ جئت لأحمل أدوات القهوة » .

حينما لم يند صوت ، أي صوت ، حتى مجرد تنفس ، مدت يدها نحو الفراش ، لكنها سحبتها مسرعة بشعور خفي ، مضت خارجة لتجلب المصباح ، ألفت الحجرة خاوية والفراش مرتباً بعناية ، بل وقد هذبت الوسائل والحشية ، إندفعت عائدة الى المطبخ في اضطراب ، وقد تناهبها الخوف والاحباط .

بعد نصف ساعة ، حينما أقبل الدباغ لتناول طعام العشاء ، وبعد ان أعدت المائدة بالفعل ، شرع القلق ينتابها ، لكنها خشيت من ابلاغ زوجها بزيارتها للغرفة العلوية ، عندئذ فتح الباب الخارجي ، وعبرت خطوات رهيفة الوقع الممر الممهد ، وصعد صاحبها الدرج ، وهناك وقف نولب ، نزع قبعته البنية ذات الحواف ، وحياها تحية المساء .

صاح الدباغ مذعوراً : « يا للسماء ! أين كنت ؟ مريض ويمضي خارج الدار متجولاً في الليل ! سوف تلقى حتفك » .

قال نولب : « أصبت ، أرى يا سيدة روثفوس اني اقبلت في الوقت المناسب ، لقد شممت رائحة حسائك الشهية عند لسوق ، ذلك سيبعد حتفي عني » .

جلسوا لتناول الطعام ، كان رب الدار يشعر بالميل للحديث ، فمضى يتغنى بمآثر حياته العائلية ومزايا كون المرء حرفياً مبرزاً في حرفته ، راح يداعب الضيف ، ثم شرع يحاضره بجدية ، فقد حان الوقت ليكف عن التسكع دون القيام بعمل . أصغى نولب دون ان يحير جواباً ، لم تفه زوجة الدباغ ببنت شفة ، كانت تشعر بالضيق من زوجها الذي صدمها ببعده عن الدماثة بالمقارنة بنولب الوسيم المهذب ، وأظهرت رأيها الطيب في الضيف من خلال العناية التي كانت تلبي بها مطالبه ، حينما دقت الساعة العاشرة حياها نولب ، وطلب من الدباغ ان يقرضه شفرة حلاقة .

أعرب روثفوس عن تعجبه قائلا : « هل رأيت احداً بمثل هذه النظافة ؟ في الثانية التي تنمو فيها لحيته تتعين حلاقتها ، طيب ، طابت ليلتك ، آمل ان تشعر بالتحسن » .

قبل ان يأوي نوليب الى غرفته أطل من النافذة الصغيرة الكائنة قرب اعلى الدرج ، ليلقي نظرة على حالة الطقس ، ويرى ما يحدث في الحي ، سكنت الريح ، وبين اسقف الدور كانت هناك رقعة سوداء من السماء حفلت بالنجوم الصافية ، التي راحت تومض وميضاً بارداً .

كان على وشك ان يسحب رأسه ويغلق النافذة ، حينما أضيئت النافذة المقابلة له في المنزل المجاور فجأة ، شاهد غرفة

صغيرة منخفضة تماثل إلى حد بعيد غرفته ، دلفت خادمة شابة الى الغرفة ، حاملة شمعدانا نحاسيا في إحدى يديها ، وفي اليد الأخرى ابريق ماء ، وضعته على الأرض ، ثم رفعت الشمعة فوق الفراش الصغير ، كان الفراش المغطى بغطاء احمر خشناً بسيطاً ولكنه كان نظيفاً يدعو إلى الرقاد ، وضعت الشمعدان في موضع لم يستطع تبينه ، وجلست على صندوق خشبي منخفض ذي طلاء أخضر اللون ، هو مثال لصندوق أي خادمة شابة .

في اللحظة التي بدأ فيها هذا المشهد غير المتوقع يتكشف كان نولب قد أطفأ شمعته ليتجنب امكانية رؤيته ، وقف الآن في هدوء يحدق مطلا من نافذته

كانت الفتاة التي لمحها عبر الطريق من النوع الذي يستهويه ، ربما لم تتجاوز الثامنة عشر أو التاسعة عشر ، لا تميل الى الطول ، ذات بشرة خمرية جذابة وعينين بنيتين وشعر أصهب مسترسل ، لم تلح السعادة على وجهها الهادىء الجذاب ، بدت مثقلة بالهموم ، وهي تقتعد صندوقها الأخضر هناك، راودت نولب الذي عرك الدنيا وخبر الفتيات كذلك فكرة واضحة ، قوامها أن الفتاة المسكينة لم تغادر القرية التي ولدت بها الا منذ وقت قريب بصندوقها ذاك ، وانها تعاني من الحنين اليها . وضعت يديها داكنتي البشرة في حجرها ، وسعت وراء قسط من الراحة بجلوسها للحظات فوق مقتنياتها الضئيلة والتفكير في الدار .

التزم نولب عند نافذته السكون ذاته الذي ران على الفتاة في غرفتها.، ومضى يحدق بشغف غريب في هذه الحياة الانسانية المجهولة الغارقة في براءة بالغة في حزنها الرقيق في ضوء الشموع، دون ان تأخذ في الحسبان ان احداً قد يراقبها، رأى عينيها البنيتين الرقيقتين حينما تتألقان وحينما تغطيهما الأهداب الطويلة ، شاهد الضوء الأحمر يتماوج في رقة فوق خديها الخمريين الطفليين . وبينما هو يراقب يديها الشابتين الرشيقتين فوق حجرها القطني قاتم الزرقة علم انهما كادحتان وأنهما ترتاحان لبرهة قبل ان تعكفا على نزع الثياب ، وهي المهمة اليومية الأخيرة.

رفعت الفتاة أخيراً رأسها بجدائلها الثقيلة المثبتة بالمشابك ، تنهدت ، تطلعت ، كأنما في حلم ، وإن لم يقل شعورها بالأسى ، الى الفراغ ، وانحنت لتحل أربطة حذائها .

تردد نولب في مغادرة مكانه ، لكنه خطر له فجأة أنه من الخطأ بل ومن القسوة بمكان ان يراقب الطفلة المسكينة وهي تنزع ثيابها ، ولو انه ناداها، وثرثر معها لبعض الوقت ، وان يطرح الطرائف التي تجعلها تمضي الى الفراش وهي أسعد قليلاً ، لكنه خشي ان يصيبها الذعر فتطفىء شمعتها اذا ما ناداها .

لجأ بدلاً من ذلك الى احدى حيله القديمة ، فشرع في الصفير، كان الصوت خافتاً للغاية الى حد أنه بدا كما لو كان يتناهى

من البعيد ، راح يصفر الأغنية الشعبية « في واد أخضر بارد تدور عجلة الطاحونة طوال اليـوم » ونجح في جعـل صفيره خافتاً ورقيقاً ، بحيث ان الفتاة اصغت لبعض الـوقت دون ان تعرف كنهه على وجه الدقة ، في خلال المقطوعة الثالثة فحسب نهضت ببطء ، ومضت الى النافذة .

انحنت وراحت تصغي بينـما واصـل نـولب الصفـير ، وللحظات قصار مضت تهز رأسها مع النغمة ، ثم تطلعت فجأة فشاهدت مصدر الصفير .

تساءلت في همس : « أيوجد أحد هناك ؟ » .

أجاب نولب بالرقة ذاتها : « صبي دباغٍ فحسب ، لم أتعمد منعك من الرقاد ، كنت أشعر بالحنين قليلاً الى بلدتي ، فظننت أن بعض الصفير يخفف عني ، لكني أعرف كذلك بعض الألحان المرحة ، هل أنت غريبة هنا كذلك ؟ » .

ـ « إنني من الغابة السوداء » .

ـ « آه ، من الغـابة السـوداء ، وكذلـك أنا ، هـل تحبين الحياة هنا في لخشتيتين إنني لا أحبها على الاطلاق » .

ـ « أوه ، لست أدري بعد ، فلم أقض هنا الا أسبوعاً ، لكني لا احبها كثيراً حقاً ، هل جئت منذ وقت طويل ؟ » .

ـ لا ، منذ ثلاثة أيام فحسب ، من أي قرية أنت ؟ » .

ـ « الا تستطيع ان تعرفها ؟ » .

ـ « ليس بوسعك التخمين ام ترى ذلك سراً ؟ » .

ـ « اختوسين انها قرية صغيرة فحسب » .

ـ « لكنها قرية جميلة ، أول ما تلمحين منها الكنيسة ، ثم هناك طاحونة ، طاحونة لنشر الخشب فيما أظن ، ثم هناك كلب أصفر ضخم ، هل أصبت أم أخطأت ؟ » .

ـ « يا الهي انه بيلو ! » .

حينما أدركت انه يعرف قريتها وانه كان هناك بالفعل تبدد الشطر الأعظم من تشككها . إنحنت وتساءلت بشغف : « هل تعرف أندريز فليك » .

ـ « لا ، لا أعرف أحداً هناك . هذا والدك ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « لا بد اذن أنك الآنسة فليك ، وحينما اعرف اسمك الأول سيكون بوسعي ان اكتب لك بطاقة بريد في المرة التالية التي امر فيها بأختوسين » .

ـ « هل ترغب في مغادرة هذا المكان سريعاً ؟ » . .

ـ لا أريد ذلك ، يا آنسة فليك ، لكني أريد ان أعرف اسمك الأول » .

ـ لكني لا أعرف اسمك كذلك » .

ـ معـذرة لهذا، لكنـه أمر يسهـل تداركـه ، اسمي كارل ايرهارد ، والآن إذا مـا تقابلنـا نهارا فأنت تعلمـين بمْ يمكن ان تناديني ، ولكن بم أناديك أنا ؟

ـ « بربارا » .

ـ « شكـرا ، هـذا جميـل ، لكنـه اسم صعب النّـطق ، وأراهن أنهم في الدار يدعونك بـربيلي - « نعم ، انهم ينـادونني به ، ولكن اذا كنت تعرف كل شيء فلم تسأل أسئلة كثيرة على هـذا النحـو ؟ والآن حـان وقت الـرقـاد ، طـابت ليلتـك أيها الدباغ » .

ـ « طابت ليلتك يا آنسة بربيلي ، نوما هنيئاً ، ومن اجلك انت سـأصفر لحناً آخر ، لا تسرعي بالإنصراف بعيداً فليس هناك مقابل للعزف » .

شـرع في الصفـير بلحن مـرح حـافـل بـارتفـاع النغمة وانخفـاضها وتقلبهـا ، حتى لتتقافـز وتتألق مـوسيقى الرقص ، أصغت اليه حتى النهاية ، وقد أذهلتها مهارتـه ، وحينما تـوقف سحبت مصـراعي النافـذة ببطء ، وأحكمت اغـلاقهـا ، بينما تلمس نولب طريقة الى غرفته في الظلام .

نهض نـولب مبكراً في الصبـاح التـالي ، واستخـدم شفرة

الدباغ . كان هذا الأخير قد أطلق لحيته لسنوات ، وكانت الشفرة مهملة للغاية ، بحيث اضطر نولب الى شحذها طوال نصف ساعة قبل ان تجز الشعر ، وحينما فرغ ارتدى معطفه والتقط حذاءه وهبط الى المطبخ حيث كان الهواء دافئاً يضوع برائحة القهوة .

طلب من زوجة الدباغ فرشاة وبعض الطلاء لحذائه .

صاحت :

دعه ، ليس ذلك من عمل الرجال ، دعني أقم به » .

لكنه لم يكن ليوافق على ذلك ، وحينما وضعت أخيراً بضحكة يساورها الارتباك الفرشاة والطلاء امامه ، قام بالعمل بدقة واتقان ويسر يلفه المرح شأن رجل اعتاد القيام بالعمل اليدوي بصورة عرضية فحسب ، حينما يكون في حالة مزاجية تسمح له بذلك ، ولكنه حينئذ يقوم به بمرح وبعناية بالغة .

ـ « جميل » .

قالتها زوجة الدباغ باعجاب ، ورنت اليه مضيفة : « متألق كما لو كنت ذاهبا لملاقاة حبيبتك » .

ـ « وددت لو كان ذلك صحيحا » .

ـ « أصدقك ، وأراهن ان لك حبيبة جميلة » .

ضحكت مرة اخرى ، وقالت معرضة : « وربما أكثر من واحدة » قال نولب في لهجة تشي باللوم : « أوه ، لن يكون ذلك جميلاً بوسعي ان اريك صورتها » .

اقتربت منه بشغف ، وهو يخرج إضمامته من جيبه ، وينتزع منها صورة دوس ، راحت تفحصها باهتمام ، وانشأت تقول بحذر : « إنها من طبقة رفيعة الشأن ، كأنها سيدة حقيقية لكنها مهزولة الى حد ما ، هل صحتها على ما يرام ؟ » .

ـ « أوه ، نعم بقدر ما أعلم ، لكن عليّ الآن الذهاب لتحية العجوز ، بوسعي ان اسمعه في الغرفة الكبرى » .

مضى الى الغرفة ، وبادر الدباغ بتحية الصباح ، كانت الغرفة قد رتبت ،بدا مظهرها اليفا ودوداً بألواحها الخشبية الفاتحة اللون وساعتها ومرآتها والصور المعلقة على الحائط ، وراودت الأفكار نولب ، إن غرفة دافئة ومريحة كهذه ليست بالشيء السيء في الشتاء ، ولكنها لا تستحق ان يتزوج المرء من اجلها ، لم يكن الاهتمام الذي تبديه زوجة الدباغ به مصدر سرور له على الاطلاق .

حينما ارتشفوا قهوتهم ، مضى خارجاً مع روثفوس ، الذي تجول به في انحاء المدبغة ، كان نولب يلم بكافة الحرف تقريباً ، وأذهل صديقه بأسئلته التي تعكس معرفة دقيقة .

تساءل في حيوية : « كيف عرفت كل هذا ؟ يكاد المرء

يعتقد انك مساعد دباغ أو على الأقل أنك كنت كذلك يوماً » .

قال نولب في تواضع : « الجوال يتعلم كافة الأمور ، فكر في الأمر ، لقد تعلمت الدباغة منك . هل تذكر ؟ منذ سبع أو ثماني سنوات ، حينما كنا على الطريق معاً جعلتك تحدثني بكل شيء عن الدباغة » .

ـ « ولا زلت تذكر كل ذلك » .

ـ « بعضه ، يا روثفوس ، لكني لن آخذ المزيد من وقتك ، ذلك أمر سيء للغاية ، كان بودي ان أساعدك ، لكن الجو رطب ومتجلد للغاية هناك ، وما زلت أعاني من ذلك السعال ، الى اللقاء أيها العجوز ، سأقوم بجولة صغيرة في البلدة طالما ان المطر لا يهطل » .

وبحذائه المتألق وقبعته البنية المصنوعة من اللباد التي امالها الى الخلف قليلاً ، انطلق بخطى خفيفة نشطة، متجنباً البرك الموحلة . وقف روثفوس عند الباب يتطلع اليه .

ـ « رجل محظوظ » .

راودت الفكرة الدباغ ، وقد عرته وخزة من الحسد ، وفي طريقه الى المواضع المخصصة للدبغ راح روثفوس يفكر في صديقه غريب الأطوار الذي لا ينشد شيئاً من الحياة الا ان يتأملها ، ولم يكن بوسعه ان يقرر اذا كان ذلك مطالبة بأكثر أو

بأقل مما ينبغي ، ان الرجل الذي يعمل بجد ويشق طريقه أفضل حالاً في العديد من الجوانب ، لكنه لم يتمكن أبداً من ان تكون له مثل هاتين اليدين الرشيقتين الدقيقتين ، او أن يخطو بمثل هذه الخطوة الرشيقة الوثابة ، كلا ، إن نولب على حق في القيام بما تتطلبه طبيعته ، ربما يستطيع قلة من الآخرين القيام به، وفي الحديث مع الغرباء مثل طفل وكسب قلوبهم ، وفي التفوه بأشياء تبعث السرور لدى السيدات من كافة الأعمار ، وفي جعل كافة أيام الأسبوع تبدو كأيام الآحاد ، بوسعك فحسب ان تأخذه على نحو ما هو عليه ، وحينما يحتاج الى سقف يظلله فإن تقديم هذا السقف له يغدو مصدر سرور وتكريم ، حقاً إنك لتوشك على ان ترغب في تقديم الشكر له لأنه جلب الخفة والمرح الى الدار .

في الوقت ذاته راح ضيفه السعيد والذي ملأه الفضول يتريض عبر المدينة ، وهو يصفر لحناً عسكرياً ، ويكرس وقته في السعي وراء الأماكن والأشخاص الذين كان يعرفهم في الأيام الخوالي ، تسلق في البداية تلاً منحدراً إلى حي بائس كان يعرف فيه حائكاً تعساً ، اسمه شلوتربيك ، كان يعكف بلا انتهاء ، على رتق السراويل القديمة ، ونادراً ما كان يعهد اليه باعداد حلة جديدة ، أمر يدعو للرثاء ، فقد كان ماهراً في حرفته ، كان قد بدا بآمال كبار ، وعمل في حوانيت متمايزة ، لكنه تزوج شاباً ، وكان لديه بالفعل العديد من الأطفال ، وكانت موهبة زوجته في رعاية الدار محدودة .

ألفى نولب الحائك في الطابق الثالث من دار متراجعة عن امتداد الشارع ، تدلى حانوته كأنه وكنة طائر معلقة في الفراغ ، حيث كانت الدار قد شيدت على جانب التل ، وحينما تطل من النوافذ فإنك لا تجد الطوابق الثلاثة وحدها بأسفلك ، وإنما كذلك تجد منحدراً مائلاً تغطيه حدائق بائسة مائلة ، وبقاعا غطاها النجيل ، تنتهي بأقنان الدجاج الرمادية ، التي تسودها الفوضى ، وأقفاص الأرانب ومخازن الخشب ، أما أقرب الأسقف التي يمكن رؤيتها فتقع بعيداً في سفح الوادي ، غير أن الحانوت كان منيراً متجدد الهواء ، وكان بوسع الحائك ، وهو يجلس امام مائدته الضخمة قرب النافذة ، أن يطل على العالم ، كأنه حارس فنار .

« عم صباحاً ، يا شلوتربيك ! » .

قالها نولب وهو يدخل الغرفة ، حدد الحائك نظره الذي بهره الضوء الساطع ، وحدق في اتجاه الباب .

صاح بفرح وهو يمد يده :

« آه ، نولب . . . عدت الى المدينة . . . وما الذي دهاك فدفعك عبر كل هذه المسافة الى هنا ؟

جذب نولب مقعداً عالياً ذا ثلاث أرجل ، اقتعده ، وقال : « أعطني إبرة وقليلاً من أفضل خيوط الصوف البني عندك ، أريد أن أتفحص أدواتي » .

نزع معطفه وصديريته ، وانتقى خيطا ، فأدخله في سم

الخياط ، وبعينين يقظتين تفقد حلته بكاملها . كانت تبدو جيدة ، كما لو كانت جديدة ، وحيثما اكتشف بقعة ناحلة او وصلة توشك ان تتفكك ، أو زراً غير محكم التثبيت كان يصلح من شأنه بأصابع ماهرة .

تساءل شلوتربيك : « وكيف حالك فيما يتعلق بالأمور الأخرى ؟ لم يسبق ان كان الطقس رائعاً على هذا النحو ، ولكن لو إن المرء كان في صحة جيدة ولا تثقله عائلة . . . » .

ابتلع نولب لعابه متأهباً للجدال .

قال في ارهاق : « نعم ، بالطبع ، الرب يسقط أمطاره على الأخيار والأشرار على السواء ، والحائكون وحدهم هم الذين تظل ثيابهم جافة ، لكنك لا تقنع ابداً ، هل انت قانع ياشلوتربيك ؟ » .

ـ « أوه ، نولب ، لست أشكو ، لكن أصغ الى الأطفال وهم يصرخون هناك ، ثمة خمسة أطفال الآن ، وها أنذا أجلس هنا ، مستخدما أصابعي حتى العظام الى وقت متأخر من الليل ، وأبدا لا يكفي ذلك ، وكل ما تقوم به أنت هو التسكع هنا وهناك » .

ـ أنت مخطىء يا صديقي ، لقد كنت في المستشفى في نيوستات ، حيث قضيت شهراً أو شهراً وأسبوعاً ، وهم لا يبقون أحداً للحظة أكثر بما تقتضيه الحاجة القصوى ، وما من

أحد يمكث أكثر من ذلك على أية حال ، إن طرق الرب غـريبة أيها الصديق شلوتربيك » .

ـ « إحتفظ بأقوالك الورعة لنفسك » .

ـ « فقدت إيمانك إذن ؟ كنت أحاول فحسب أن أستعيـد إيماني ، وذلك هو السبب الذي جئت من أجله لأراك ، أريدك ان تحدثني بالأمر كله » .

ـ « لا تضـايقني بـالحـديث عـن الايمـان ! . أقلت في المستشفى ؟ آسف لسماع ذلك » .

ـ « لا تكترث ، لقد انتهى الأمر ، أريدك ان تحدثني عن الكنائسيات والوحي ، تدرك أني أتيـح لي الكثير من الـوقت في المستشفى ، كان لديهم انجيـل ، قرأتـه كله تقريبـاً ، لذا فـإن بوسعي أن أدلي بدلوي كذلك ، كتاب غريب ذلك الانجيل » .

« لقد عثرت على شيء بين دفتيه، غريب، ليكن، لا بد أن نصفـه أكـاذيب ، لأنـه مـا من شيء فيـه يتسق مـع الأشيـاء الأخـرى ، ربما تفهمـه أنت بشكل أفضـل لأنـك كنت تـرتـاد المدرسة اللاتينية » .

ـ « لست أذكر الكثير عن ذلك » .

ـ « تدرك بانولب . . . ! »

بصق الحائك عبر النافذة المفتوحة وحدق أمامه ، ارتسمت

المرارة على وجهه ، قال :

ــ « ليس الـدين بالشيء الـطيب ، فـلا نفـع فيـه ، وقـد سئمته ، سئمته » .

تطلع إليه جواب الآفاق ، وهو غارق في التفكير : « أحقا ؟ ألم تـذهب أبعد مما ينبغي أيها الصـديق العجوز ؟ يبـدو لي ان الانجيل يضم بعض الأمور الجيدة للغاية » .

ــ « بالتأكيد ، وحينما تمعن في القراءة تجد دائـماً العكس ، كلا ، لقد ضقت ذرعاً به ، ضقت ذرعاً » .

كان نولب قد نهض ، والتقط مكواه .

قال معترضاً : « بوسعـك أن تضع بضـع قطع من الفحم على النار » .

ــ « ولم ؟ »

ــ « أود أن أقوم بكي صديـريتي ، ولن يضير الأمـر قبعتي كـذلك ، بعـد كـل هـذا المـطر » ، صـاح شلوتـربيـك ببعض الضيق : « الا تزال ذلك المتـأنق القديم ذاتـه ! ما جـدوى ان تـرتـدي مـلابس كـالـدوق حينـما تكـون عـلى وشـك التضـور جوعا ؟ » .

ابتسم نولب بهدوء : « يبدو المرء في شكل أفضل ، كما أن ذلـك يبعث السرور في نفسي ، وإذا لم تـرغب في القيام بـذلك

بدافع من التقوى ، فقم به لتكون مهذباً ولتسعد صديقاً قديماً ».

غادر الحائك الغرفة ، وسرعان ما عاد بمكواه ساخنة .

قال نولب : « جميل، شكراً لك » .

بحذر شرع في كي حافة قبعته ، لكنه لم يكن ماهراً في الكي قدر مهارته في الحياكة ، أخذ صديقه المكواة من يديه ، وقام بالكي بنفسه .

قال نولب : « رقيق منك للغاية ان تقوم بذلك ، الآن عادت قبعة يوم الأحد مرة اخرى ، لكن تأمل أيها الحائك ، إنك تطلب أكثر مما ينبغي من الانجيل ، ووفق ما أتصوره فإن على كل امرىء ، أن يخمن لنفسه ما هو حق وما هي طبيعة الحياة ، تلك أمور لا يسعك ان تتعلمها من أي كتاب ، إن الانجيل عتيق ، وفي تلك الأيام لم يكن الناس يعرفون الكثير مما نلم به اليوم ، ولكن لهذا السبب عينه هناك الكثير من الأشياء البديعة بين دفتيه وأمور حقيقية كذلك ، اعتقد ان اجزاء منه مثل كتاب جميل مصبور. تأمل النحو الذي سارت به تلك الفتاة ـ روث ـ تلتقط بقايا الحصاد عبر الحقول ، إنها بديعة ، بوسعك ان تشتم عبق الصيف فيها ، او النحو الذي جلس به المخلص مع الأطفال الصغار ، وراح يفكر : إنكم تعنون بالنسبة لي اكثر مما يعني أولئك الكبار بخيلائهم ، واذا وجهتم السؤال إليّ فإنه

كان محقاً وبامكاننا أن نتعلم منه » .

أقر شلوتربيك : « نعم ، تلك حقيقة ، ولكن من الأيسر القيام بذلك مع أطفال الآخرين عن أن يكون لك خمسة أطفال ولا تعرف كيف تعولهم » .

استسلم لحالة من الاكتئاب المرتد . ولم يستطع نولب تحمل رؤيته على هذه الحال ، فعزم على ان يقول ما يجعله يبتهج قبل ان يتركه ، تفكر قليلا ، ثم انحنى تجاه الحائك ، وتطلع الى وجهه بعينيه اللامعتين وقال بنعومة : « ولكن الا تحب اطفالك ؟ »

حدق الحائك في نولب فزعاً : « بالطبع احبهم ، كيف يمكنك قول مثل هذا الشيء ؟ بالطبع أحبهم ، وخاصة الأكبر منهم » .

أومأ نولب ، وقال « أنا ماض الآن ياشلوتربيك ، ولك جزيل شكري ، صديريتي الآن تعادل ضعف ما كانت تساويه ، لكن عليك ان تكون راضياً ومبتهجاً بأطفالك ، ذلك هو المأكل والمشرب لهم ، والآن أصغ إليّ ، سأحدثك بشيء لا يعرفه احد ، ولست بحاجة إلى أن تردده » .

رمق الحائك بانتباه عيني نولب الصافيتين ، وقد استعاد سكينته ، بدت الجدية في عيني نولب ، وراح يتحدث بنعومة ، بحيث وجد الحائك صعوبة في فهمه :

« أنظر اليّ ، إنك تحسدني ، وتقول لنفسك : ليست لديه عائلة أو مخاوف ، لكنك تخطيء تماما ، إن لي طفلا ، مخلوق صغيرا لا يتجاوز العامين ، مضى به غرباء لأن أباه كان مجهولاً ، ولأن أمه ماتت في أعقاب ولادته ، ما من حاجة تدعوك الى ان تعرف المدينة التي يوجد بها ، لكني أعرف ، وحينما أمضي الى هناك ، أزحف الى الدار ، أقف الى جوار السور ، انتظره وحينما يواتيني الحظ أرى الصُغير ، لكني لا أستطيع ان أمد يدي نحوه لأمنحه قبلة ، وأقصى ما أستطيع القيام به هو ان أصفر لحناً له ، بينما أمر قريباً ، طيب ، هكذا تمضي الأمور ، الآن الى اللقاء ، وكن سعيداً لأن لك اطفالاً » .

يمم نولب شطر المدينة ، توقف للحظة ليتجاذب أطراف الحديث عند نافذة حانوت الخراط ، وراح يراقب الدوران السريع لقشور الخشب المتجعدة التي تمت ازالتها ، توقف عقب ذلك ليحي مسؤول الأمن ، الذي يحمل له المودة ، والذي بادر فقدم له صندوق سعوطه المصنوع من خشب البتولا ، حيثما مضى كان الأصدقاء القدامى يقصون عليه أكبر وأقل أحداث الأسرة والحانوت شأناً ، سمع عن الموت المفاجيء الذي داهم زوجة محاسب البلدية ، وعن الكيفية التي أمعن ابن العمدة بها في اساءة التصرف ، وبالمقابل حدثهم نولب بالأحداث التي جرت في المدن الأخرى ، مستمتعا بالروابط المتينة التي وثقها هنا وهناك كصديق وكمشارك في الأسرار مع الأعضاء الأكثر استقرارا

في مجموع المقيمين بالمدينة ، وكان اليوم هو السبت ، توقف عند بـوابة معمـل التقطير ليسـأل رؤسـاء العمـال عن الأمـاكن التي ستجري بها حفلات الرقص في هذا المساء والمساء التالي .

كانت هناك أماكن عديـدة ، لكن أفضلها كـان في مرقص « الأسـد » في بلدة جير تلفنجن عـلى بعد مسيـرة نصف ساعة فحسب ، قرر أن ذلك هو المكان الـذي سيمضي إليه بصحبة بربيلي ، الفتاة التي تقطن في المنزل المجاور .

كان وقت الغذاء قـد حان ، عـلى وجه التقـريب ، وحينما صعد نولب درج دار روثفوس ، كانت رائحة شهية عـلى نحو بهيـج تفوح في طـريقه، وقف سـاكناً ، نفـخ في راحته ببهجة وشغف طفـوليين ، عـلى الرغم من خفـة خطوتـه كانت زوجة الدباغ قد سمعته ، فتحت باب المطبخ على مصراعيه ووقفت في المدخل المضيء وقد لفتها سحابة من بخار ما تطهوه .

صـاحت بانفعـال : « آه ، السيد نـولب ، يسعـدني انـك عدت مبكراً هكذا ، وكما ترى لدينا فطائـر الكبد ، وظننت أن بوسعي ان احمر شريحة من الكبد خصيصاً لك ، إذا احببت ، ما رأيك ؟ » .

حك نولب ذقنه بيده وأومأ مجاملاً .

ــ « لم يتعين أن يعد شيء خاص من أجلي ؟ سأكون سعيداً للغاية بصحفة من الحساء فحسب » .

ـ « لا تقل هذا ، فحينما يكون الرجل مريضاً يتماثل للشفاء فإنه يحتاج الى تغذية سليمة ويتوجب عليه ان يسترد قوته ، ولكن لعلك لا تؤثر الكبد ، إن البعض لا يحبونه » .

ضحك في تواضع ، وقال : « أوه ، لست واحداً من هؤلاء ، إن طبقاً منه هو طبق يوم الأحد ، سوف اكون سعيداً تماماً »

ـ « ما دمت معنا ينبغي ان تحصل على كافة ما ترغب فيه ، والا ففيم كان تعلمي الطهي ؟ عليك بالحديث فحسب ، هناك شريحة اضافية من الكبد احتجزتها لك ولسوف تفيدك » .

اقتربت منه ، منحته ابتسامة مشجعة ، فهم تماماً ما عنته ، كانت جميلة للغاية ، لكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً ، اخذ يعبث بقبعته الجميلة التي قام الحائك المسكين بكيها ، اشاح بناظريه .

ـ « شكراً يا سيدة روثفوس ، شكراً لرقتك ، لكني حقاً أفضل الفطائر ، لقد دللتني بما فيه الكفاية حتى الآن » .

ابتسمت ، وتوعدته مادة اصبعها نحوه : « لست بحاجة الى ان تتصرف بمثل هذا الخجل ، إنه لا يقنعني على أية حال ، لتكن الفطائر اذن ، مع الكثير من البصل ؟ » .

ـ « ليس بوسعي ان ارفض ذلك » .

ارتدت في انهماك الى فرنها ، بينما مضى اا

حيث كانت المائدة قد أعدت بالفعل . جلس يطالع صحيفة الأمس الى أن أقبل الدباغ وقدم الحساء ، حينما انتهت الوجبة لعب ثلاثتهم الورق لبعض الوقت ، وأذهل نولب مضيفته بحيله الجديدة والقائمة على التلاعب بالصدفة من خلال الورق ، كانت له طريقة بارعة مرحة في نشر مجموعة ورق اللعب وطيها بسرعة البرق ، كان يلقي ورقته على المنضدة بحركة رشيقة ، وبين الحين والآخر يمرر طرف أصبعه فوق حافة أوراقه ، راح الدباغ يراقبه بالاعجاب والاستغراق الذي تثيره المهارات التي لا يمكن اكتسابها فيمن يقوم بعمل شاق ، لكن زوجته راحت تراقب هذه المؤشرات باهتمام العارف ، تركزت عيناها بانتباه على أصابع نولب الطويلة الرشيقة التي لم يلق العمل الشاق ظلال التشوه عليها .

عبر النوافذ الصغيرة تسلل شعاع رفيع ومتردد من أشعة الشمس الى الغرفة ، وعبر المائدة والأوراق ، وتلاعب مع الظلال الواهنة على الأرض ، وتسلق في وجل السقف الشاحب الزرقة . التمعت عينا نولب وهو يلتقط كل شيء : تلاعب شمس فبراير ، سلالم الدار وسكينتها ، وجه صديقه الجاد الذي اضناه العمل الشاق ، ونظرات الزوجة الجميلة الخفيفة ، لم يحبب ذلك ، فلم يكن هذا هدفه في الحياة ، لم يكن ذلك هو ضرب السعادة الذي ينشده، مضى يحدث نفسه ، لو ان صحتي

كانت أفضل ، ولو ان الوقت كان صيفاً لما مكث هنا ساعة واحدة .

ـ « أظن أني سأتابع الشمس لبعض الوقت في مسيرتها » .

قالها فيما روثفوس يلتقط أوراق اللعب ويتطلع الى ساعة الحائط ، هبط الدرج مع الدباغ وغادره في مخزن التجفيف مع سكاكينه ، مضى يضرب عبر البقعة المعشبة التي امتدت بفواصل من بقاع الدباغة حتى النهر ، هنا كان الدباغ قد بنى ركيزة صغيرة ممتدة ليقف عليها بينما يغسل الجلود ، اقتعد نولب الركيزة تاركاً ساقيه تتدليان فوق المجرى الصامت المتدفق ، راح يراقب في ابتهاج الاسماك الداكنة المنطلقة هنا وهناك تحت قدميه ، ثم مضى يتفحص ما يحيط به ، محاولاً التوصل الى وسيلة للحديث مع الفتاة الصغيرة التي تعمل في الدار المجاورة .

كانت حديقتا الدارين متجاورتين لا يفصلهما إلا سور خشبي مهشم ، ومنذ وقت طويل وبفعل الماء تحللت اخشاب السور . كان بوسع المرء عبوره دون صعوبة من حديقة الى اخرى . بدت حديقة الدار وكأنها تلقى رعاية تفوق ما تلقاه بقعة الدباغ الخضراء التي طال فيها النجيل وتشابك ، استطاع نولب ان يلمح أربعة احواض خضراوات صغيرة ، وقد تجاوزتها الأعشاب في النمو خلال موسم الشتاء . وصفين هزيلين من الخس والسبانخ الشتوية وعدداً من شجيرات الورد المنحنية ،

وقد دفعت بتيجانها في الأرض ، وعلى مبعدة كانت هناك أشجار تنوب عديدة حجبت الدار .

عقب فحص دقيق لحديقة الجار زحف نولب في صمت حتى أشجار التنوب ، ومن خلالها استطاع ان يشاهد الدار والمطبخ في الجانب الخلفي منه ، لم يضطر للانتظار طويـلا قبل ان يشاهد الفتاة، وقد شمرت عن ساعديها ، وانهمكت في العمل ، كانت ربة الدار معها توجه التعليمات ، وتريها شيئاً ثم آخر ، على نحو ما يتعين على النساء ان يفعلن حينما لا يرغبن في دفع اجر خادم محنكة فيقمن بتشغيل خادم مبتدئة جديدة كل عام ثم ينسقن في كيل المديح للفتاة التي غادرتهن لتوها ، لكن لهجتها وهي تدلي بتعليماتها وترصد الأخطاء لم تكن مشوبة بالخبث ، وكانت الفتاة الجديدة فيما يبدو قـد اعتادتهـا بالفعـل ، فقد مضت في عملها بهدوء ، ودون ان ينعقد حاجباها .

وقف المتسلل مستنداً الى احدى الأشجار، راح يراقب ما يجري ويصغي بيقظة قناص وصبر رجل ليس وقته بالثمين اعتاد التمتع بالحيـاة كمتفرج ، سـره ان يراقب الفتـاة حينما تلوح في النافذة ، وأصغي باقي الوقت ، وأدرك من حديث ربة الدار انها من لخشتيتين ، وإن كانت من منطقة أبعـد عبر الـوادي ، اخذ يمضغ طرف أملود يضوع عطراً من شجرة التنوب ، ويصغي في اناة لمدة نصف ساعة ثم نصـف سـاعة آخـر إلى أن اختفت ربة

الدار أخيراً ، ولف الصمت المطبخ .

إنتظر قليلاً ، ثم اقترب بهدوء . طرق نافذة المطبخ بغصن جاف ، لم تبد الفتاة اكتراثاً ، فاضطر الى الطرق ثانية ، أقبلت هذه المرة نحو النافذة نصف المفتوحة ، فتحتها على مصراعيها ، وأطلت منها .

قالت هامسة في دهشة : « يا إلهي ، ماذا تصنع هنا ؟ لقد أوشكت على افزاعي » .

قال نولب بابتسامة : « كيف يسعني ان اخيف احداً ؟ لقد أردت فحسب تحيتك ومعرفة أخبارك ، واليوم أيضاً هو السبت ، فأردت ان أسأل عما اذا كان بامكانك التنزه معي ظهر الغد » .

هزت رأسها ، بدت ملامحها وقد كستها الرهبة الى حد انه شعر بالآسف لها حقاً ، قالت بلهجة ودودة : « كلا ، لن ابرح الدار غداً ، سأخرج في الصباح الى الكنيسة » .

غمغم نولب : « لكن بإمكانك اذن الخروج معي هذا المساء » .

ـ « هذا المساء ؟ نعم ، لن يكون لدي عمل ، اعتزم كتابة رسالة لأهلي » .

ـ أوه ، ستكتبين رسالتك متأخرة لمدة ساعة ، فلن ترسل

الليلة على أية حال ، كنت مشوقاً للحديث معك ، وبإمكاننا أن نقوم بنزهة رائعة هذا المساء ، إذا لم تمطر السماء ، كوني لطيفة ، هل انت خائفة مني ؟ »

ـ « لست خائفة من أحد ، ولا منك بالتأكيد ، لكني لا أستطيع ، فلو انهم رأوني بالخارج مع رجل . . . » .

ـ « لكن يا بربيلي ما من احد يعرفك هنا ، ثم ان ذلك ليس خطيئة ولا يعني احداً ، أنت لم تعودي بعد طالبة في مدرسة ، لذا عليك بعدم النسيان ، سأنتظر في الثامنة الى جوار قاعة الرياضة المجاورة لسوق الماشية ، أم هل ينبغي ان احضر قبل ذلك ؟ بوسعي ذلك اذا شئت » .

« لا ، ليس قبل ذلك ، لا . . . لا تحضر اطلاقاً ، مستحيل . لا استطيع » .

رمقها بنظرته الطفولية المكتئبة ، قال بحزن : « طيب اذا كنت لا تودين ، بدا لي انك وحيدة تماماً وغريبة هنا وأنك تعانين الحنين الى الدار احياناً ، وكذلك أنا ، وكان بوسعنا أن نتريض قليلاً ، كنت أود أن أسمع المزيد عن اختوسين لأني ذهبت الى هناك يوماً لكني لا أستطيع ارغامك ، فلا تسيئي فهم الأمر » .

ـ « لم أسيء الفهم ؟ كل ما هنالك أني لا أستطيع فحسب » .

ـ « ليس لديك عمل هذا المساء يا بربيلي، أنت لا تريدين الحضور فحسب ، لكنك قد تغيرين رأيك ، عليّ ان أمضي الآن، لكني سأكون خارج قاعة الرياضة هذا المساء ، وإذا لم يأت احد فسأتريض وحدي وأفكر فيك وأنت تكتبين الرسالة الى اختوسين ، فإلى اللقاء ، ودون مشاعر مريرة » .

أومأ مسرعاً ، مضى قبل ان تتمكن من إضافة المزيد ، شاهدته يختفي خلف الأشجار ، فبدت الحيرة على محياها ، عادت الى عملها ، وفجأة شرعت ـ وقد خرجت ربة الدار ـ في الغناء ملء قلبها .

سمعها نولب ، كان يجلس من جديد على ركيزة الدباغ وهو يلقي قطعاً صغيرة في شكل كرات من الخبز كان قد وضعها في جيبه وقتَ الغذاء ، راح يسقط كرات الخبز برفق في الماء واحدة اثر الأخرى ، ويراقبها بشغف ، وهي تطفو قليلا مع التيار ، وتهبط الى القاع المعتم ، حيث تلتقطها الاسماك الصامتة كالأشباح .

قال الدباغ على مائدة العشاء : « طيب ، اليوم هو السبت أخيراً ، ليس بوسعك ان تدرك كيف يبدو ذلك رائعاً بعد أسبوع شاق » .

ـ « أوه ، بوسعي ان اتخيل » .

قالها نولب بابتسامة ، ابتسمت السيدة روثفوس أيضاً ،

ورمقته بنظرة عابثة .

قال روثفوس بنغمة مرحة . « الليلة ، الليلة سنتناول زجاجة من الجعة معاً ، وفي الغد إذا ما كان الطقس جميلاً سنخرج في نزهة طويلة فما قولك في ذلك أيها الصديق العجوز ؟ » .

ضربه نولب مداعباً في كتفه ، قال : « الحياة رائعة معك هنا ، عليّ أن أقر بذلك أنا مشوق الى نزهتنا ، لكني سأكون مشغولا هذا المساء ، فلي صديق هنا ، يعمل في حانوت الحداد وسيترك البلدة في الصباح ، المعذرة لكننا سنقضي الغد كله معاً وإلا لما كنت رتبت الأمر على هذا النحو » .

ـ « لكنك لا تستطيع ان تمضي متسكعاً في الليل ولما تبل من مرضك بعد » .

ـ « ليست المبالغة في تدليل نفسي بالأمر الطيب ، لن أتأخر طويلاً ، أين تحفظون المفتاح حتى يمكنني دخول الدار » .

ـ « يا لك من رفيق عنيد ! ليكن ، إمض اذا ما تحتم ان تنطلق ، ستجد المفتاح وراء مصراع النافذة السفلى ، أتعرف المكان ؟ » .

ـ « بالطبع ، طيب ، سأمضي الآن ، لا تنتظرني طابت ليلتك ، طابت ليلتك يا سيدة روثفوس » .

هبط الدرج ، كان قد بلغ الباب الخارجي حينما أقبلت زوجة الدباغ تعدو خلفه ، دفعت اليه بمظلة ، فاضطر نولب الى تناولها راغماً ، قالت : « نولب ، عليك ان تعني بنفسك ، والآن سأريك موضع المفتاح » .

أمسكت بيده في الظلام ، قادته خلف الدار ، توقفت قرب نافذة صغيرة .

قالت في همس مستثار ، وهي تلاطف يده : « إننا نضع المفتاح خلف المصراع ، مد يدك خلف الفتحة فحسب وستجده على قاعدة النافذة » .

قال نولب : « شكراً لك » . وسحب يده في خرج .

تساءلت ضاغطة في رفق بقربه: هل يمكنني الاحتفاظ بزجاجة من الجعة لك » .

ـ « لا ، شكراً يا سيدة روثفوس ، أنا لا أتناول أي شراب عادة خلال الليل ، طابت ليلتك ، وشكرا لك » .

ضغطت ذراعه ، وهمست وقد غلبتها العاطفة : « هل انت في عجلة من امرك ؟ » كان وجهها قريباً من وجهه ، وفي الصمت الذي لفه الارتباك ، وفي غمار رغبته في الا يزيحها بالقوة ، مرر يده فوق شعرها .

قال بصوت بالغ في رفعه : « على ان امضي الآن » وتراجع عن موضعه .

إفتر ثغرها عن ابتسامة ، كان بامكانه أن يرى اسنانها تلتمع في الظلمة . وبصوت بالغ الرهافة قالت : « إذن سأنتظر حتى تعود الى الدار ، فأنت أثير لديّ » .

غذ السير نحو الشارع المظلم ، ومظلته تحت ابطه ، وعند المنعطف التالي شرع ، تخلصاً من ضيقه ، يصفر لحن أغنية تقول :

« تظن أني سأصحبك ،
أوه ، لا ، أنت لست لي ،
فالعار يجعلني أرغب في أن أهزك ،
حين أكون بصحبتك » .

كان الهواء عبق الرائحة . وهنا وهناك لاحت نجمة في السماء المعتمة ، وفي احد الفنادق كان بعض الشباب يقضون امسية صاخبة ، وخلف نوافذ ملعب البولينج الجديد في فندق « الطاووس » شاهد مجموعة من المواطنين ذوي الحيثية يرتدون قمصانهم الطويلة الاكمام ، وهم يقدرون ثقل الكرات ، ويدخنون السيجار .

عند قاعة الرياضة توقف نولب ، وتلفت حوله ، غنت الريح الندية في نعومة عبر اشجار الكستناء الحارة ، تدفق النهر

دونما صوت في الظلام الكثيف ، الذي لا تقطعه الا انعكاسات الضوء الصادر من نافذة او نافذتين فحسب ، هدأ الليل الساجي كل خلية من خلايا جواب الآفاق ، فراح يستنشق الهواء بحميمية الربيع ودفء الطقس وجفاف الطرقات ، مضت ذاكرته التي لا تعرف الكلل تدرس المدينة ، الوادي ، والمنطقة بأسرها ، كان يعرفها حق المعرفة ، يعرف الطرقات والممرات الممتدة مع النهر ، القرى ، الضياع ، المزارع . كان يعرف أين يمكنه أن يتوقع استضافة ودودة لقضاء الليل ، كان يفكر بجد ويخطط لرحلته المقبلة ، حيث لم يعد بوسعه ان يمكث في لخشتيتين ، لكنه كان يريد البقاء يوم الأحد من أجل صديقه ، إذا لم تجعل المرأة ذلك أمراً بالغ المشقة بالنسبة له .

راح يفكر في أنه ربما كان ينبغي عليه ان يحدث الدباغ عن إمرأته ، لكنه لم يكن يحب التدخل في شؤون الآخرين ، أو يشعر بالحاجة الى محاولة جعل الناس أفضل حالاً او اكثر حكمة . كان يشعر بالأسف اذ مضت الأمور على هذا النحو ، ولم تكن مشاعره تجاه ساقية الفندق السابقة ودية على الاطلاق ، لكنه في الوقت ذاته اضطر الى الضحك حين فكر في خطب الدباغ الطنانة حول مباهج الاستقرار والزواج ، كان يلم بتلك الأمور ، فحينما يتفاخر انسان بسعادته أو فضيلته فإنهما عادة ما تكونا هزيلتين ، كان الأمر ذاته ينطبق على ورع الحائك ، إن بوسعك ان تلاحظ حماقة الناس ، بإمكانك أن تسخر منهم أو

تأسف لهم ، لكن بوسعك أن تدعهم ليمضوا في طريقهم .

بتنهيدة عميقة طرد هذه الأمور من ذهنه . وقف الى جوار الجذع المنحني لشجرة كستناء عجوز على الناحية الأخرى من الجسر ، عاد بأفكاره مرة اخرى الى رحلاته ، كان يود لو انه جاس عبر ارجاء « الغابة السوداء » لكن الطقس كان اكثر برودة في الجبال خلال هذا الموسم من ان يسمح بذلك ، كانت الأرض في الغالب لا تزال تكسوها الثلوج ، يهترىء حذاؤك اذا ما رحلت الآن وتجد الأماكن التي يمكن ان تقضي الليل فيها متباعدة للغاية ، كلا ، لن يستقيم الأمر ، عليه ان يسير مع الوديان وأن يلزم المدن ، كانت طاحونة ستاج على بعد أربع ساعات من السير مع النهر هي أول محط يمكن التعويل عليه ، ومن المؤكد انهم هناك سيضيفونه ليومين ، إن كان الطقس سيئا .

غرق في لجى أفكاره . كان قد أوشك على نسيان انه بانتظار قادم ، حينما لاح شبح ضئيل خائف على الجسر المعتم الذي تكتسحه الريح ، أسرع يعدو سعيداً وممتناً ليقابلها وهو يؤرجح قبعته .

– « بربيلي . . . كم هو جميل منك المجيء ، أوشكت ان أكف عن انتظارك » .

سار الى يسارها ومضى بها صعداً مع النهر ، كان الحياء والخجل يغلبان عليها ، راحت تردد :

ـ « كان ينبغي حقا الا أحضر ، لو ان احداً لا يرانا ! » .

لكن جعبة نولب كانت حافلة بشتى الأسئلة ، وسرعان ما تأنت خطوتها وركنت الى الانتظام . بعد قليل راحت تثرثر معه ، كما لو كان صديقاً قديماً ، شجعتها أسئلته وتعقيباته ، فحدثته عن قريتها ، أبيها وأمها ، أخيها وجدتها ، الديكة والدجاجات ، العواصف الباردة والأمراض ، الأعراس والأسواق ، راح كنزها الصغير من الخبرات يتكشف ، وكان أعظم مما افترضته هي نفسها ، وأخيراً حدثته كيف أن أبويها تعاقدا على عملها وكيف غادرت الدار وانثنت تتحدث عن عملها والدار التي تقيم بها .

كانا قد ابتعدا كثيراً عن البلدة قبل ان يخطر لها التفكير في المكان الذي يمضيان اليه ، فقد حررها الحديث من وحدة الأسبوع الطويل الكئيب ، من الاذعان لما تؤمر به والتزام الصمت ، كان المرح قد سيطر عليها .

صاحت فجأة في دهشة : « ولكن أين نحن ، الى أين نمضي ؟ » .

ـ « كل شيء على ما يرام ، إننا ماضيان الى جيرتلفنجين . لقد وصلنا تقريباً » .

ـ « جير تلفنجين ؟ ولم ؟ من الأفضل ان نعود، لقد تأخرنا » .

ـ « متى ينبغي أن تعودي يا بربيلي ؟ » .

ـ « في العاشرة، أي في وقت قريب ، لقد كانت جولة رائعة »

ـ « لا زال الوقت مبكراً على الساعة العاشرة ، سأحرص على عودتك للدار في الموعد . لكننا لن نكون أبداً في مثل هذا الشباب سوياً ، لذا اعتقدت بأن في وسعنا ان نخاطر بالرقص ، أم تراك لا تحبين الرقص ؟ » .

رمقته بدهشة يداخلها الشغف : « أحب الرقص ، ولكن أين ، هنا في قلب الليل ؟

ـ « سنصل جيرتلفنجين خلال لحظة ، حيث تصدح الموسيقى في نزل « الأسد » بوسعنا ان نمضي لنشارك في رقصة واحدة ، ثم نعود الى الدار ، فنكون قد أمضينا مساء طيباً » .

وقفت بربيلي ساكنة تفكر في الأمر .

قالت فجأة : « سيكون ذلك طريفاً ، ولكن ما الذي سيظنه الناس بنا ؟ لا أريد ان يعتقد أني فتاة من هذا النوع ، ولا أريد ان يظن احد كذلك أننا نمضي معاً » .

فجأة ضحكت في مرح ، وقالت : « تدرك انه لو أني اتخذت صديقاً فيما بعد فلا ينبغي ان يكون دباغا ، لا أريد مضايقتك لكن الدباغة مهنة قذرة » .

قال نولب في صفاء : « ربما كنت على شيء من الصواب ، ولست أتوقع ان تقترني بي ، لكن احداً هنا لا يعرف أنني دباغ أو انك فخورة بنفسك الى هذا الحد ، وقد غسلت يدي فاذا ما اهتممت بالرقص معي فلك ان تعتبري ان الدعوة قد وجهت لك ، إذا لم تهتمي فسوف نعود » .

لاح السقف المثلث الشاحب لأول منازل القرية خلال اغصان الشجر الداكنة ، فجأة قال نولب : « أصغ » ورفع أصبعه : تدفق صوت الموسيقى من القرية ، كان صوت أكورديون وكمان .

ـ « ليكن » .

قالتها بربيلي ضاحكة ، وأسرعا يغذان الخطو .

في نزل « الأسد » كان هناك اربعة أو خمسة أزواج من الراقصين ، كانوا جميعا من الشبان لا يعرفهم نولب ، بدا الجو السائد هادئاً ورصيناً ، ولم يضايق احد الغريبين اللذين شاركا في الرقصة التالية ، رقصا اللاندلر والبولكا ثم حل دور الفالس ، لم تكن بربيلي تعرف كيف يرقص الفالس ، لذا جلسا وتناولا بعض الجعة التي كانت تعادل على وجه الدقة موارد نولب المالية

احمرت وجنتا بربيلي من الرقص ، وتألقت عيناها وهي ترمقه . قال نولب في التاسعة والنصف : « اعتقد ان وقت الذهاب قد حان » .

فاجأها ذلك ، فبدت حزينة للغاية ، قالت برقة : « يا للعار ! » .

ـ « يمكننا ان نمكث قليلاً » .

ـ « لا ، عليّ ان أعود ، كان ذلك جميلاً » .

غادراً القاعة ، عند الباب خطر أمر لبربيلي ، قالت : « لم نعط الموسيقيين شيئاً » قال نولب بشيء من الحرج : « كلا ، انهم يستحقون تينز والمشكلة اني لا أملكه » على عجل أخرجت كيس نقودها من جيبها : « لم لم تقل شيئاً ، هاك ، اعطه اياهم » . اخذ قطعة النقود ، وأعطاها للموسيقيين ، ثم غادرا المكان . في الخارج اضطرا للانتظار لحظات قلائل قبل أن يتمكنا من رؤية الطريق في الظلام الحالك ، كانت الريح تهب بضراوة ،.فتدفع امامها قطرات من المطر ، بين الحين والآخر .

تساءل نولب : « أيجب ان نستخدم المظلة ؟ » .

« لا ، والا فلن نتقدم في مواجهة هذه الريح ، كان الطقس جميلا هناك في الداخل وكان رقصك بديعا أيها الدباغ » .

راحت تثرثر بمرح ، فيما التزم صديقها الصمت ، ربما لأن الارهاق نال منه ، وربما لأنه كان يخشى لحظة الفراق الوشيكة .

شرعت فجأة في الغناء : « الى جوار نهر النيكر أمضي بالقطيع ، وعلى ضفاف الراين » . كان صوتها دافئاً صافياً . في

المقطوعة الثانية شارك نولب في الغناء مردداً المقطع الجهير بثقة وفي صوت عميق عذب جعلها تصغي بسعادة الى غنائه .

تساءل في النهاية : « طيب ، هل تبددت وحشتكِ ؟ » .

قالت ؛ وهي تطلق ضحكة متألقة : « أوه ، نعم ، ينبغي ان نقوم بجولة اخرى قريبا » قال بمزيد من النعومة : « اخشى ان هذه الجولة هي الأخيرة » .

تجمدت في موضعها ، لم تسمع الكلمات تماماً ، لكنها التقطت نغمة الاكتئاب في صوته .

ــ « لكن ما الذي دهاك ، وهل ضايقتك ؟ » .

قالتها والرجفة توشي صوتها .

ــ « بالطبع لا ، يابربيلي ، لكن عليّ ان اغادر المدينة ، وقد قدمت إخطارا بذلك » .

ــ « أنت لا تعني ذلك حقاً ؟ يؤسفني سماع ذلك » .

ــ « لا ينبغي ان تشعري بالأسف من أجلي ، ما كنت لأبقى هنا طويلا على أية حال ، اضافة الى ذلك فأنا لا أعدو ان أكون دباغاً ، وعليك ان تجدي حبيباً في القريب ، شاباً وسيماً ، وعندئذ لن تشعري بالوحشة مرة أخرى ، وسوف ترين ذلك بنفسك » .

ــ « لا تتحدث على هذا النحو ، فأنت تعلم أني أشعر بالود

نحوك كثيراً ، رغم انك لست حبيبي » .

لفهما الصمت معاً ، راحت الريح تصفر حول وجهيهما ، إثاقلت خطى نولب ، كانا قد بلغا الجسر تقريباً ، اخيراً توقف .

ـ « الآن وداعاً ، من الأفضل أن تمضي باقي الطريق وحدك » .

بأسي صادق تطلعت بربيلي الى محياه .

ـ « الأمر صحيح اذن ؟ دعني اشكرك لن أنسى أبداً هذا المساء ، فليحالفك التوفيق » ، امسك بها ، جذبها اليه ، فوجئت ، وراودها خوف غامض ، حدقت في عينيه ، إحتوى رأسها بجدائلها التي نداها المطربين يديه كلتيهما ، وهمس : « وداعاً ، يا بربيلي ، ولكن قبل أن أمضي أود أن أقبلك حتى لا تنساني ذاكرتك تماماً » .

إرتعدت ، انكمشت قليلا ، لكن عينيه كانتا رقيقتين ، حزينتين ، لاحظت الآن للمرة الأولى كم هما جميلتان ، تقبلت قبلته من دون ان تغمض عينيها ، ثم حينما وقف متردداً وابتسامة واهنة على شفتيه انسابت الدموع من عينيها فردت قبلته بحرارة ، سارعت بالابتعاد ، كانت قد وصلت بالفعل الى الجسر حينما التفتت فجأة وعادت مرة اخرى الى حيث كان لا يزال واقفاً في البقعة ذاتها .

تساءل : « ما الأمر يا بربيلي ؟ عليك ان تعودي الى لدار » .

ـ « أوه نعم ، أنا ذاهبة ، ينبغي الا تسيء الظن بي » .

ـ « بالتأكيد ، لا » .

ـ « لكن خبرني أيها الدباغ ، قلت انك لا تملك نقوداً ، الن يدفع لك اجر قبل الرحيل » .

ـ « كلا ، لن أتلقى اجوراً ، لكن هذا لا يهم ، سأدبر امري ، ينبغي ألا تقلقي » .

ـ « كلا ، كلا ، ينبغي ان يكون في جيبك بعض المال ، هاك »

دفعت بقطعة معدنية كبيرة القيمة في يده . عرف من الملمس أنها تالر » .

ـ « بوسعك ان ترده الي أو ترسله يوما ما » .

أمسك بيدها : « لن يصير ذلك ، لا ينبغي ان تبددي نقودك على هذا النحو ، انه تالر بأكمله ، خذيه ، اصر على ذلك ، لو كانت لديك قطع صغيرة من العملة ، لنقل خمسين فيننج ، سآخذها بسرور لأني مفلس ، لا مزيد على ذلك » .

راحا يتجادلان قليلاً ، اضطرت بربيلي أن تريه كيس نقودها لأنها قالت بأن ليس لديها إلا التالر ، لكن ذلك لم يكن

صحيحاً ، كان هناك مارك واحدى القطع ذات العشرين فيننج لا تـزال متداولـة ، أراد ان يأخـذ تلك القطعة لكنها قالت انها ليست كافية ، فقال انه لن يأخذ شيئاً ، ولكن في النهاية احتفظ بالمارك ، واندفعت بربيلي راحلة .

في طريقها الى الدار تساءلت لم لم يقبلها مرة اخـرى ، تارة بشعور من الندم ، وتارة أخرى باحساس بأنه كان رقيقاً حين لم يعاود تقبيلها ، وانه كان كيّساً عذب الروح ، وكان هذا هو الشعور الذي خلدت اليه في النهاية .

انقضى ما يزيد على الساعة قبل ان يعود نولب الى الدار ، شاهد الضوء لا يزال متوهجا في الغرفة الكبيرة الامر الذي يعني ان زوجة الدباغ جالسة في انتظاره، بصق في ضيق ، وفكـر في الهرب الى قلب الليل في هذه اللحظة عينها ، لكن الارهاق كان قد نال منه ، وأوشك المطر ان ينهمر مدراراً . ولم يكن يرغب في ان يجحد فضل الدباغ ، أضف الى ذلك انه شعر برغبة في القيام بمزحة صغيرة لا تؤذي احد .

التقط المفتاح من مكمنه ، فتح باب الـدار خلسة كلص ، أغلقه وأحكم رتاجه دون صوت وقد زم شفتيه ، بعنـاية وضع المفتـاح مكانـه ، خلع نعليه ثم صعـد الـدرج بقـدميـه اللتين يكسوهما جورباه ، كـان باب الغـرفة الكبيـرة مواربـاً ، شاهد الضوء من خلال فرجة الباب ، وسمع زوجة الدباغ التي راحت

تغط في النـوم من طـول الانـتـظار وتنفسهـا العميق يصـدر من الأريكة ، صعد صامتا الى غرفته ، أغلقهـا على نفسـه ورقد في الفراش ، لكنه عقد العزم على الرحيل في الغد .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فقال انه لن يأخذ ابداً ، ولكن في النهاية [illegible]

[illegible] واستعدت [illegible] راحلة .

[illegible] في طريقها الى الدار تساءلت لم لم يقبلها مرة أخرى [illegible] يشعر [illegible] من الندم ، وتارة أخرى بإحساس بأنه كان رقيقاً [illegible] وإنه كان كئيبا عذب الروح ، وكان هذا هو الشعور الذي حملته اليه في النهاية .

تقضي ما يزيد على الساعة قبل ان تعود [illegible] الى [illegible] لا يزال متوهجا في الغرفة الكبيرة الامر الذي [illegible] زوجة الدباغ جالسة في انتظاره ، يصغي في ضيق ، ويفكر في [illegible] الى قلب الليل في هذه اللحظة عينها ، لكن الارهاق [illegible] منه ، وأوشك المطر ان ينهمر مدراراً . ولم يكن [illegible] فصل الدباغ ، اضف الى ذلك انه شعر برغبة في [illegible] صغيرة لا تؤذي احد .

انتفض الدباغ من مكمنه ، فتح باب الدار [illegible] واحكم [illegible] دون صوت وقد زم شفتيه ، [illegible] الشيخ مكانه ، خلع نعليه ثم صعد الدرج [illegible] ، كان باب الغرفة الكبيرة مواربا [illegible] من خلال فرجة الباب ، وسمع زوجة الدباغ [illegible]

تذكاراتي عن نولب

في تلك الأيام الخوالي كنت شاباً منطلقاً، وكان نولب لا يزال يتدفق حياة. كنا في منتصف الصيف ، مضينا كلانا نتجول عبر انحاء الريف الخصب ، دون ان تثقل كاهلنا الهموم ، كنا في النهار نضرب في حقول الحنطة الذهبية او نرقد في الظل الندي لشجرة جوز عند حافة الغابة ، في الليل كنت أصغي محدقاً في نولب بينما يقص الروايات على الفلاحين أو يقدم عروضاً لخيال الظل للأطفال او ينشد الفتيات أغنيات ، كنت أصغي في سرور دون ان يخالجني الحسد ، حين يقف وقد تحلقت حوله الفتيات ووجهه الذي لوحته الشمس يومض كبرق الصيف فيعجزن في غمار ضحكهن وفكاهتهن عن تحويل ابصارهن عنه ، حينذاك فحسب ، كان يخطر ببالي عرضا انه شيطان محظوظ على نحو فذ

أو انني ذاتي أمثل العكس تماماً ، فأضيق ذرعاً بالجلوس هناك كأني نتوء في جذع شجرة ، في بعض الأحيان كنت أتسلل وحيداً فأمر بخوري القرية لنتبادل حديثاً جاداً ولأقضي الليلة في داره أو أمضي الى مشرب احتسي فيه قدحاً من النبيذ في سكينة وادعة .

أذكر أننا كنا ذات أصيل نشق طريقنا عبر الحقول بعيداً عن أقرب القرى الينا حينما مررنا بمقبرة مجهولة الى جوارها كنيسة صغيرة ، كانت تحيطها أسوار تتكائف بإزائها شجيرات داكنة الخضرة ، وقد وادعه إنتصبت أمنة في رحاب الصيف الحارة . كانت هناك شجرتا كستناء عند المدخل ، ألفينا البوابة موصدة ، كنت أرغب في مواصلة المسيرة ، لكن نولب لم يكن يشاركني هذه الرغبة ، فشرع في تسلق السور . تساءلت : « أنتوقف مرة أخرى ؟ » .

ــ « أعتقد ذلك ، فلست أرغب في أن تلتهب قدماي » .

ــ « أمن الضروري أن نتوقف عند مقبرة ؟ » .

ــ « لا عليك ، هلم بنا ، أعلم أن الفلاحين لا يأبهون كثيراً بالمسرات ، لكن حينما يتعلق الأمر بمثواهم الأخير فإنهم يؤثرون الراحة التامة . الأمر في نظرهم يستحق العناء ، فتراهم يغرسون أجمل الزهور والنباتات عند مقابرهم-وفيما حولها » .

شاركته تسلق السور المنخفض ، فأدركت انه كان على

صواب ، امتدت المقابر التي كان معظمها تعلوه صلبان خشبية بيضاء في صفوف ممتدة ومتعرجة ، نمت فوقها الزهور والخضرة تألقت هناك شجيرات مثقلة بالورد وغيضة كثيفة من الليلج والبيلسان .

رحنا نجوس بأبصارنا برهة ، اقتعدنا النخيل الذي كان مستطيلاً ومزدهراً في بعض البقاع ، نلنا قسطاً من الراحة ، وجف عرقنا ، فغمرنا شعور بالرضا .

قرأ نولب الاسم المنقوش على أقرب صليب ، قال : « كان اسمه انجلبرت أويره ، عاش حتى تجاوز الستين ، لكنه الآن يرقد تحت البليحا العطرية ، وهي زهرة بديعة ، انه يرقد في سلام ، يسعدني ان يكون لديّ بعض من هذه الزهور حين يحل الوقت اما الآن فلعلي أقطف زهرة صغيرة من هذه » .

قلت : « من الأفضل ان تقطف شيئاً آخر فهذه الزهور تذبل سريعاً » .

غير أنه نزع عوسجا وغرسه في قبعته التي كانت الى جواره فوق النخيل .

قلت : « كم هو بديع هذا الهواء ! » .

قال : « نعم ، لو أن المقبرة كانت أهدأ قليلاً لسمعناهم يتحدثون هناك بأسفل » .

ـ « ليسوا هم الذين يتحدثون ، لقد انتهوا من حديثهم » .

ـ « أنى لنا ان نعلم ؟ يقولون ان الموت رقاد ، الا نتحدث بين الفينة والأخرى خلال رقادنا ؟ بل اننا في بعض الأحيان نغني » .

ـ « ربما تفعل أنت ذلك » .

ـ « لم لا ، لو انني كنت ميتا ، لانتظرت حتى يوم الأحد حين تقبل الفتيات الى هنا فيلقين نظرة ويقتطفن الزهور من المقابر ولشرعت في الغناء ولكن برقة بالغة » .

ـ « ماذا ستغني ؟ » .

ـ « ماذا سأغني ؟ أوه ، أي أغنية عتيقة » .

تمدد على الأرض ، أغمض عينيه ، سرعان ما شرع الغناء بصوت طفولي ناعم :

« لأني رحلت في شرخ الشباب ،
أقبلن وغنين لي أيتها العذارى الحسان . . .
أغنية وداع ،
حين أقبل من جديد ،
حين أقبل من جديد ،
سأكون فتى جميلاً » .

لم أتمالك أن انفجرت ضاحكاً على الرغم من اني احببت الأغنية ، شدا بصوت جميل ، إن لم تكن الكلمات بذات معنى دائماً فإن اللحن كان بديعاً ، كان ذلك كافياً .

قلت : « نولب ، لا تبالغ في تقديم الوعود للعذارى الحسان والا فسيتوقفن عن الاصغاء لك . جميل ان تقول بأنك ستقبل من جديد ، لكنه ما من احد يلم بهذه الامور حقاً ، وكيف يسعك ان تكون على يقين من انك ستغدو فتى جميلاً ؟ »

ـ « لا ، ليس بمقدوري التيقن ، ذلك حقيقي ، ولكن هذا هو ما أود أن أكون ، اتذكر في ذلك اليوم الفتي الصغير ذا البقرة الذي سألناه عن الطريق ؟ أود لو أكون مثله حينما أقبل عائدا ، الا تود ذلك ؟ » .

ـ « كلا ، لا أود ذلك ، عرفت ذات يوم شيخا تجاوز السبعين ، كانت عيناه ساجيتين تماماً ورقيقتين ، بدا لي ان كل شيء يحيط به رقيق وحكيم وهادىء ومنذ ذلك الحين رحت أفكر في انني إذا ما أقبلت عائداً فإنني أرغب في أن أكون مثله » .

ـ « طيب ، أمامك ، طريق طويل يتعين ان تقطعه ، إجمالاً هناك شيء مضحك فيما يتعلق بالأمنيات ، إذا كان كل ما عليَّ لأصبح فتى جميلاً على هذا النحو هو الايماء برأسي وكل ما عليك هو الايماء لتصبح عجوزاً رقيقاً فإن أياً منا لن يومىء برأسه ، سيسعدنا أن نبقى على ما نحن عليه » .

ـ « نعم ، هذا صحيح » .

ـ « صحيح ، ليكن ، ولكن ذلك ليس كل ما في الأمر. في بعض الأحيان احدث نفسي ان اجمل شيء في العالم هو فتاة رشيقة شقراء ، لكن ذلك هراء لأننا غالباً ما نرى سمراء تلوح لنا أكثر جمالاً على وجه التقريب ، أضف الى ذلك ان هناك احياناً اخرى اعتقد فيها ان اجمل الأشياء هو طائر يحلق طليقاً في السماء ، في مرة اخرى لا يبدو لي شيء عجيباً كما تلوح فراشة بيضاء على سبيل المثال ذات نقاط حمراء ترقش جناحيها أو الشمس وهي تلتمع في السحاب عند الغسق حينما يتوهج كل شيء لكن النور لا يبهر ابصارنا ، ويبدو كل شيء بهيجا وبريئاً » .

ـ « أنت على حق ، يانولب فكل شيء يبدو جميلاً حينما تتطلع اليه في لحظة طيبة » .

ـ « نعم ، لكن هناك المزيد ، أعتقد أن أجمل الأشياء تمنحنا شيئاً آخر الى جانب السرور انها تخلف فينا كذلك شعوراً بالحزن والخوف » .

ـ « لماذا ؟ » .

ـ « أعني ان الفتاة الجميلة ما كانت لتبدو بمثل هذا الجمال لو اننا لم نكن نعلم أن لها عمراً تتألق فيه وانها حينما ينقضي ذلك

العمر ستشيخ وتفنى ، ولو أن شيئاً جميلاً كان من شأنه ان يظل على جماله للأبد اذن فسيسعدني ذلـك ، لكن ، ذلك ، لكني ، على أية حال سأتطلع اليه بعينين أكثر بـروداً ، سأحـدث نفسي قائلاً ، ان بوسعك النـظر اليه في أي وقت ولا يتعـين ان يكون ذلك اليوم ، لكني حين أعلم ان شيئاً ما قابل للفناء ولا يمكن ان يـدوم للأبـد فانني لا أنـظر اليه بشعـور البهجـة فحسب وانما التعاطف كذلك » .

ـ « افترض هذا » .

ـ « ليس هناك شيء اجمل بالنسبة لي من الألعاب النارية في الليل ، هناك كرات نارية زرقاء وخضراء ، انها تنطلق عالية في الظلمة وفي سمت حسنها تلتف ، تتبدد ، حينـما تراقبهـا تشعر بأنك سعيـد ، لكنـك خـائف في الـوقت ذاتـه لأنها في لحـظة ستنتهي ، معاً تمضي السعادة والخوف ، أنها تبدو اجمل كثيراً مما لو دامت وقتا أطول ، الا تحس بالشيء ذاته ؟ » .

ـ « أجل ، أعتقد انني أحس به ، لكن ذلك لا ينصـرف الى كل شيء » . .

ـ « لم لا ؟ »

ـ « على سبيل المثال ، اذا كان فتى وفتاة يحب احدهما الآخر وتزوجا او اذا تصادق شخصان يغدو ذلك أمراً جميلاً لأنه قصد به ان يدوم والا ينتهي عاجلاً » .

رمقني نولب عن كثب ، رفت اهدابه السوداء ، قال بشرود : « نعم ، لكن ذلك ينتهي أيضاً ، شأن كل شيء آخر ، ثمة أشياء عديدة يمكن ان تحطم الصداقة والحب » .

ـ « صحيح ، لكننا لا نفكر في ذلك الى ان يحدث » .

ـ « لست واثقاً من ذلك ، على سبيل المثال ، احببت مرتين في عمري ، حبا صادقا أعني ، وفي كل مرة كنت اعلم ان الحب سيدوم الى الأبد وانه يمكن ان ينتهي بالموت فحسب لكن الحب انتهى في كل مرة ولم امت. لي صديق كذلك في بلدتي ، كنت اعتقد أننا لن نفترق أبداً ، لكننا افترقنا منذ زمان بعيد ، بعيد » .

غرق في الصمت ، لم أستطع التفكير في شيء أقوله ، كنت بعد لم اجرب الأسى الذي هو جزء لا يتجزأ من كل علاقة انسانية ، لم أكن قد تعلمت بعد انه مهما كانت الصلة وثيقة فلا بد من لحظات تباعد بين الفينة والفينة ، رحت أتأمل كلمات صديقي ، حظي بحبي على نحو اكبر ما قاله عن كرات النار لأن الشعور ذاته غالباً ما كان يخالجني ، الانبثاق الهادىء للهب الملون اذ يرتفع في قلب الظلمة وسرعان ما يغرق فيها ، بدا لي ذلك رمزاً لكل المتع البشرية ، فكلما كانت بديعة تضاءل اشباعها لنا وحم قضاؤها . حدثت نولب بما كنت أفكر فيه .

لكنه لم ينطلق في اتجاه الحوار ذاك قال فحسب :

« نعم . . . نعم » ، بعد برهة طويلة ، بصوت كظيم أضاف :
« لا معنى لكل هذا التفكير والتأمل ، اننا لا نقوم بأداء ما نفكر فيه أبداً ، لا نتوقف لنفكر ، وانما نفعل ما تأمر به قلوبنا ، لكن ربما كان هناك بعض الصواب فيما حدثتك به عن الصداقة والحب ، في النهاية تبقى لكل منا حياة خاصة لا يشارك أحد فيها، بوسعك أن تدرك أنه حينما يموت صديق أو حبيب فانك تبكي وتحزن ليوم أو لشهر أو حتى لعام لكن الراحل الأثير يموت ويمضي حينئذ وسواء أن يكون الراقد في مثواه مجرد فتى شريد مجهول الهوية او غير ذلك » .

ـ « لا تقل ذلك ، يا نولب ، فلست احب سماعه ، لقد تحدثنا غالبا عن هذه الأمور ، وقلنا دائما ان الحياة ينبغي ان يكون لها معنى وان هناك جدوى في أن يكون المرء طيباً ودوداً، في أن يكون سيئاً وشرساً ، ولكن وفق النحو الذي نتحدث به الآن فلا فارق هناك ويمكننا على حد سواء ان نغدو لصوصا وقتلة » .

ـ « لا ياصديقي ، ليس بمقدورنا ذلك ، تأمل ان كان بوسعك ان تجبر نفسك على قتل الأشخاص القلائل المقبلين الذين سنلتقي بهم او ان تحدث الفراشة الصفراء بأنها كان ينبغي ان تكون زرقاء ، لسوف تسخر منك » .

ـ « ليس ذلك ما عنيته ، ولكن اذا ما كان الأمر عبثا ، فليس هناك معنى لمحاولة المرء ان يكون طيباً ومستقيماً ، ليس

هناك خير طالما ان الازرق طيب كالأصفر والشر طيب كالخير ، حينئذ فان الانسان يغدو كالحيوان في الغابات ، يتبع ببساطة طبيعته فلا تعود هناك فضيلة او رذيلة » .

تنهد نولب ، قال :

ـ « ماذا بوسعي أن أقول ؟ ربما كنت على صواب، وذلك هو السبب في نوبات الكآبة الغبية تلك التي تعترينا ، لأننا نشعر بأن توقنا وكدحنا مجردان من المعنى وأن الأمور تمضي ببساطة في مجراها ، لكن هناك شعوراً بالذنب رغم ذلك حتى حين لا يكون بوسع الانسان مقاومة ان يكون سيئاً ، لأنه يعي السوء الكامن في نفسه ، وذلك هو السبب في ان الخير يتعين ان يكون الطريق الصحيح لأننا حين نجترح الخير تغمرنا السعادة ويصفو ضميرنا.

كان بوسعي ان ادرك من تعبيرات وجهه انه ضاق ذرعا بهذه المناقشة ، وغالباً ما كان يعتريه هذا الشعور ، يشرع في التفلسف، يقرر المبادىء يجادل مهاجماً ومدافعاً ثم يتوقف فجأة. في البداية، اعتقدت انه ضاق باجاباتي واعتراضاتي الخرقاء، لكن الأمر لم يكن كذلك، كان يشعر بأن ميله الى التأمل يمضي به الى أرض لا تتناسب معرفته ووسائله في التعبير مع الضرب في متاهاتها ، فعلى الرغم من انه طالع الكثير ، وقرأ تولستوي على سبيل المثال ، فانه لم يكن بمقدوره دائماً التمييز بين الطرح الصائب والخاطىء وكان يلجأ الى احاسيسه بالقدر ذاته ، كان يتحدث عن المثقفين كما يتحدث طفلٌ موهوب عن الكبار ، كان

عليه ان يقر بأنهم أقوى وأفضل عدة منه ، لكنه كان يزدريهم لعدم استفادتهم على الوجه الصحيح من معرفتهم ولعدم قيامهم بحل أي احجية باستخدام حكمتهم » .

رقد على ظهره الآن ، أسند رأسه الى ذراعيه ، راح يحدق عبر اوراق الشجر القائمة في السماء الزرقاء الملتهبة ويغني بنعومة اغنية شعبية من وادي الراين ، مازلت اتذكر المطلع الأخير منها :

ارتديت حتى الآن المعطف الأحمر ،

وعليّ الآن ان ارتدي المعطف الأسود ،

سبعة اعوام لا تنقص يوماً ،

الى ان ينقضي حبي

جلسنا عند الغسق احدنا قبل الآخر عند الحافة المعتمة ، مع كل منا بعض الخبز والسجق المجفف ، رحنا نتناول الطعام، ونشهد الليل مقبلا ، منذ وقت قليل فحسب كانت التلال تلتمع بوهج السماء التي يزحف عليها الغروب وتستحم في السديم الناعم المضيىء الحواف ، أما الآن فقد اعتمت وبدت ملامحها الخارجية حادة وقد ألقت بألوان اشجارها وشجيراتها ومنحدراتها على السماء التي كانت ما تزال تلملم بعض الضوء الأزرق الشاحب وان غلبت عليه زرقة الليل المعتمة .

حينما كان الضوء كافياً طالع احدنا للآخر بعض الأغنيات

من كتيب صغير زانته صور للوحات محفورة في الخشب ، انتهى ذلك مع رحيل الضوء ، حينما فرغنا من الطعام رغب نولب في سماع بعض الموسيقى ، انتزعت الهارمونيكا من جيبي الذي كان مليئاً بفتات الخبز ، قمت بمسحها وعزفت ألحان اغنياتنا القليلة المعتادة ، ضربت الظلمة باجنحتها عبر انحاء الريف الممتد ، فقدت السماء وهجها الشاحب وفيها الظلمة تقبل راحت الأنجم تنبثق واحدة اثر الأخرى ، حلقات نغمات الهارمونيكا الرهيفة المتماوجة عبر الحقول ، وانداحت الى بعيد . قلت لنولب : « مازال الوقت مبكرا بالنسبة لموعد الرقاد ، فاروِ لي قصة ، لا يتعين ان تكون حقيقية او خرافية » .

فكر نولب برهة ، قال : « ليكن ، قصة وحكاية خرافية معا ، بوسعك أن تدرك أنها حلم ، راودني هذا الحلم في الخريف الماضي ثم عاودني مرتين منذ ذلك الحين ، دائماً على النحو ذاته ، واليك به :

شارع ضيق في بلدة صغيرة كتلك التي قدمت منها ، لكل الدور نوافذ تطل على الشارع لكنها أكثر ارتفاعاً من النوافذ التي تراها عادة ، كنت أمضي عبر الطريق ، بدا الأمر كما لو كنت عائداً الى موطني بعد وقت طويل ، لكني لم أكن سعيداً حقاً ، كان هناك أمر ما لا يسير وفق ما ينبغي ، راودني شعور بأنني ربما لم أكن في المكان الصحيح ، وان هذه البلدة ليست بلدتي على

الاطلاق وكانت بعض الأجزاء على ما ينبغي أن تكون تماما وتعرفتها في الحال لكن دوراً عديدة كانت غريبة ومهجورة ، لم استطع العثور على الجسر المؤدي الى السوق مررت بدلا منه بحديقة غير مألوفة وكنيسة بدت لي كما لو كانت في كولونيا او بازل ، لها برجان كبيران، ولم يكن لكنيستنا ابراج على الاطلاق وانما جذع شجرة منخفض له سقف متنقل لأن البنائين أخطأوا ولم يتمكنوا من اكمال البرج .

كان الأمر على النحو ذاته مع الناس ، تعرفت البعض ممن رأيتهم على مبعدة ، عرفت اسماءهم ، كانت على شفتي وأوشكت ان أناديهم ، لكن معظمهم مضوا الى الدور أو الى شوارع جانبية واختفوا ، حينما اقترب أحدهم تحول الى غريب ، حينما مر بي وتعقبته بنظراتي بدا لي أنه في النهاية الرجل الذي ظننت وأنني يقينا أعرفه ، شاهدت جماعة من النسوة يقفن خارج حانوت ، اعتقدت ان احداهن عمتي التي ماتت ، لكنني حين مضيت اليها لم أعد أعرفها وكن يتحدثن لهجة غريبة لم استطع فهمها.

في النهاية حدثت نفسي : أوه ، لو كان بوسعي فحسب أن أمضي بعيداً عن هنا ، انها حينا تبدو بلدتي القديمة وحيناً آخر لا تبدو كذلك ، لكني طوال الوقت ما أفتأ أشاهد داراً مألوفة أو وجهاً أعرفه وحينما اندفع اليه يخيب ظني في كل مرة ، لكني لم

أغضب ولم يعترني الضيق ، انما أنا حزين وخائف ، أردت ان أردد صلاة ، حاولت جاهداً ان اتذكر ، لكن ما وسعني التفكير فيه كان عبارات سخيفة من قبيل سيدي العزيز وفي اطار هذه الظروف. في حزني وارتباكي مضيت أغمغم بهذه العبارات. بدا لي أن ذلك قد استمر عدة ساعات الى أن أصابني الدوار والاعياء ، مع ذلك رحت أضرب متعثراً من مكان الى مكان ، في ذلك الوقت كان المساء قد حل فقررت أن أسأل أول شخص أقابله أين يمكنني أن أقضي الليل او كيف أعثر على الطريق المؤدي الى خارج المدينة ، لكنني لم أستطع ان احادث أحداً ، كانوا جميعاً يمرون بي كما لو لم اكن موجوداً ، بلغت من الأعياء واليأس حد أنني اعتقدت بأني سأنفجر باكياً .

فجأة درت حول منحنى فألقيت نفسي.في شارعنا العتيق ، كان قد تغير ، بدا بعيدا عن الواقع ومرتبا ، لكن ذلك لم يثر ضيقي كثيراً ، سرت عبر الشارع ، رحت اتعرف الدور دارا بعد الأخرى بالرغم من تهاويل الحلم ، أخيراً وصلت الى الدار العتيقة التي نشأت بها ، كانت شأن الدور الأخرى سامقة على نحو غير طبيعي لكنها فيما عدا ذلك بدت جميلة كما في الأيام الخوالي ، اعترتني رعدة لفرط الفرحة والانفعال .

عند عتبة الدار وقفت حبيبتي الأولى ، كان اسمها هنريت ، إلا أنها كانت أطول وأكثر اختلافاً عما عهدتها وأبهى جمالا ، وفيما

أخذت في الاقتراب ادركت ان ثمة أمر عجائبياً وملائكياً يحيط بجمالها ، لكني لاحظت كذلك ان شعرها أشقر وليس كستنائياً كشعر هنريت ، مع ذلك كانت هي هنريت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها وان قوامها مختلفاً .

ـ هنريت !

صحت منادياً ، انتزعت قبعتي، لأنها بدت أثيرية للغاية بحيث لم اكن على يقين من انها ستعرفني .

التفت وحدقت في عيني، وبينما هي تحدق فيها ، ذهلت ، أحسست بالخجل لأنها لم تكن هنريت وانما اليزابيث حبيبتي الثانية التي أقمت معها أعواما .

هتفت : اليزابيث ! مددت يدي نحوها .

نظرت إليّ. اخترقت نظراتها فؤادي كما لو كان الرب قد تطلع إليّ ، لم تكن نظرة قاسية او متعالية وانما صافية وهادئة ، روحانية وشامخة الى حد أنني شعرت كأني جرو ، فيما هي تنظر إليّ كساها الجد والحزن. هزت رأسها كما لو كانت قد طرحت سؤالاً لا يليق لم تأخذ بيدي وانما عادت الى الدار وأغلقت الباب خلفها ، كان بوسعي ان أسمعه وهو يصفق .

أشحت بناظري ، مضيت في طريقي ، على الرغم من أن الدموع والأحزان أوشكت أن تعمي ناظري فقد رأيت ان

المدينة تغيرت على نحو غريب ، بـدت كل الشوارع وكافة الدور الآن على نحو ما كانت في الأيام الخوالي تمـاما ، كـانت الرقية الشريرة قد تحطمت ، لم تعد النوافذ مرتفعة للغاية بعد، وغدت الألـوان في موضعهـا الصحيـح ، عـاد النـاس الى ذواتهم مـرة اخرى ، راحوا يتطلعون إليّ بدهشة تمازجها السعادة كما لو كانوا يعرفونني ، ناداني البعض باسمي لكني لم استطع الرد ولم اتمكن من الوقوف لمحادثتهم ، شيء ما دفعني للسير عبر الجسر القديم المـألوف الى خـارج المـدينـة ، كـان الألم يعتصر فؤادي فغللت الدموع كل ما اراه بدا لي أني قد فقدت كل ما كان لي في المدينة واني ألوذ بالهرب وقد غمرني العار ، ولم أدر السبب في ذلك .

تحت أشجار الصفصاف عند حافـة المدينـة توقفت لألتقط أنفاسي ، عندئذ فحسب خطر ببالي أنني كنت أمام دارنا القديمة مباشرة وانني لم أفكر في أمي وأبي وأخوتي واخواتي وأصدقائي ، أبداً لم يحفل قلبي بمثـل هذا الاضـطراب ، الحزن ، والعـار ، لكني لم أستطع ان انقلب عائداً لاستدراك مـا فات فقـد انتهى الحلم واستيقظت من نومي » .

قالَ نولب : « لكل انسان روح ، لا يسعه ان يمزجها بأي روح اخـرى ، يمكن ان يلتقي اثنان ، بـوسعهمـا أن يتجـاذبا أطراف الحديث ، بامكانهما ان يتقـاربا ، لكن روحيهـما تظلان كزهرتين ، كل منهـما تمتد جـذورها في مـوضعها ، لا تستـطيع احداهما ان تمضي الى الأخرى ، لأنه يتعين عليها ان تنأى عن

جذورها، وهو ما لا تستطيع اجتراحه. ان الزهور تفوح بأريجها وتنثر حبوب لقاحها لأنها تود لو تمضي احداها نحو الأخرى، لكن الزهرة لا تملك القيام بشيء يضع الحبة في موضعها الصحيح، ان الريح هي التي تقوم بذلك، والريح تقبل وتمضي كما يحلو لها».

بعد هنيهة أضاف: «ربما كان ذلك هو ما يعنيه الحلم الذي حدثتك به، لم أخطىء عامداً في تعرف هنريت أو اليزابيث، ولأنني احببتهما كلتيهما ذات يوم وأردت جعلهما ملكا خالصاً لي أصبحتا بالنسبة لي نوعا من شخوص الحلم. بدا شبيهاً بهما وان لم يمثل أي منهما، أن هذا الشبح ينتمي الي، لكن الحياة لم تعد تدب فيه، وغالباً ما راودتني هذه الأفكار عينها عن والديّ، انهما يعتقدان أنني طفلهما وانني أماثلهما ولكن على الرغم من حبي لهما فانني غريب عنهما ليس بوسعهما فهمه، والجانب الأساسي مني الذي قد يكون روحي بالفعل لا أهمية له ويرجعانه الى طيش أو الى سوء الطبع، رغم ذلك فانهما يحبانني وسيقومان بأي شيء في هذا العالم من اجلي، يمكن للأب ان يورث ابنه انفه وعينيه بل وذكاؤه، ولكنه لا يورثه روحه، فالروح شيء جديد في كل كائن بشري».

لم يكن لديّ ما أعقب به على ذلك، ففي ذلك الوقت لم اكن قد شرعت بعد في التفكير وفق هذه التصورات او على الأقل لم اكن قد شعرت بحاجة عميقة لذلك، لم تكن مثل هذه

الخواطر تثير استيائي على الاطلاق، لم تكن تمس قلبي من ثم تخيلت انها بالنسبة لنولب كذلك لا تعدو ان تكون لهوأ‌لا نضالا ، أضف الى ذلك انه كان امرا بديعاً يبعث شعوراً عذباً بالسلام أن نرقد جنباً الى جنب فوق النخيل الجاف في مقدم الليل والكرى ونحن نراقب اولى النجيمات بزوغا قلت : « أنت مفكر ، يا نولب ، كان ينبغي ان تكون أستاذاً بالجامعة » .

ضحك ، هز رأسه ، قال بشرود : « أوثر على ذلك الانضمام يوماً الى جيش الخلاص» . كان ذلك امراً مبالغاً فيه قلت : « لا أصدقك في المرة القادمة ستحدثني بأنك ترغب في ان تكون قديساً » .

ـ « ذلك هو ما أوده ، فكل من يشعر بالتوق حقاً لما يفكر فيه ويقوم به فهو قديس ، واذا ما اعتقد ان شيئاً ما صحيح يتعين ان يقوم به ، واذا ما اعتقدت يوما انه من الصواب بالنسبة لي الانضمام الى جيش الخلاص ، فاني آمل أن أقوم بذلك » .

ـ « ولم جيش الخلاص ؟ » .

ـ سأحدثك بالسبب ، لقد ناقشت الكثيرين وأصغيت الى أحاديث عديدة ، سمعت القسس ، المدرسين ، العمد ، الديمقراطيين الاشتراكيين ، والليبراليين لكني شعرت في اعماقي ان أيا منهم لا يأخذ ما يقول مأخوذ الجد ، لم يجعلني أحدهم أشعر

بأنه اذا ما اقتضت الضرورة فإنـه سيضحي بنفسـه من اجل حكمته ، لكنني رأيت وسمعت في جيش الخلاص بكل موسيقاته وتراتيله اثنين او ثلاثة يتوقون لذلك حقاً » .

ـ « وأنى لك ان تعرف ؟ » .

« ـ لا عليك ، بوسعك ان تعرف ، أذكر واحد منهم كان يلقي خطاباً في ميدان بإحدى القرى ذات يـوم واحد ، مع الحرارة والغبار فقـد صوتـه ، لم يكن يبدو بـالغ القـوة حينما لم يستطع التلفظ بكلمة اخرى ، ترك رفاقه الثلاثة يرتلون مقطوعة من ترتيلة ، تجرع قليلاً من الماء كان نصف أبناء القرية يتحلقونه أطفالاً وكباراً ، راحوا يسخرون منه ويمطرونه بالأسئلة كان يقف خلفه أحد المزارعين ومعه سوط راح يسوط الهواء به بين الحين والحين ـ كراك ليخيف المتحدث . أغرق الجميـع في الضحك ، لكن الرجل اليائس لم يعتره الغضب رغم أنه لم يكن بالأحمق ، كافح مجدداً ضد الهرج والمرج بصوتـه الواهن ، ابتسم حيث كان يمكن أن يبكي الآخرون أو يصبـوا اللعنات ، وكما تعلم فإن المرء لا يقوم بذلك من اجل أجر يقف به عند الكفاف او لمجرد التسلية ، لا كلا ، لا بد أن هناك قدراً هائلاً من الصفاء واليقين بداخله » .

ـ « ربما ، لكن الشيء ذاته لا يصدق على الجميع ، فرجل حـاذق ومرهف الحس مثلك مـا كان يمكن ان يحتمـل كل تلك الضجة » .

ـ « ربما كان بوسعه ذلك ، لو كان لديه او كان يعرف شيئاً أفضل من كل حذقه ورهافته ، أعلم ان الأمر ذاته لا يصدق على الجميع ، لكن الحقيقة يتعين أن تصدق » .

ـ « أوه ، الحقيقة ، أنى لنا أن نعرف ان مرتلي الصلوات أولئك لديهم الحقيقة ؟ »

ـ « معك بعض الحق في ذلك ، اننا نعرف ، وما أقوله هو انني اذا ما وجدت الحقيقة سأتبعها » .

ـ « اذا ! لكنك في كل يوم تجد شطراً من الحكمة وفي اليوم التالي تتخلى عنه » .

نظر الي في ضيق وقال : « لم يكن جميلا منك ان تقول ذلك » .

أردت أن أعتذر ، لكنه اسكتني وغرق في الصمت ، بعد برهة قصيرة همس في رقة بتحية المساء ورقد ، لكنني لا أعتقد أنه اغمض عينيه عقب ذلك مباشرة . كنت مسهداً فرقدت نحو ساعة متوسداً ذراعي ومحدقاً في الليل .

في الصباح أدركت ان هذا اليوم من أيام نولب الطيبة حدثته بذلك ، فالتمعت عيناه الطفليتان وهو ينظر اليّ ، قال : « أحب حدسك . أتعلم من أين يأتي يوم طيب كهذا ؟ » .

ـ « لا ، من أين ؟ » .

ـ « من النوم جيدا والحلم بأشياء جميلة ، لكنك ينبغي الا تتذكر ماذا كانت تلك الأشياء ذلك هو حالي اليوم ، لقد حلمت بأشياء بديعة ومبهجة ، لكني نسيتها جميعاً ، أعلم فحسب انها كانت رؤيا رائعة » .

قبل ان نصل الى القرية التالية ونحتسي حليبنا الصباحي كان قد شدا بأربع اغنيات جديدة تماماً للصباح البهيج بصوته الدافىء المنساب بلا عناء ، ولو ان هذه الأغنيات كتبت ودونت لما بدت ذات قيمة كبرى ، فلم يكن نولب شاعرا عظيما ، لكنه كان شاعرا رغم كل شيء وفيما يشدو بأغنياته القصار كانت تلك الأغنيات تبدو وثيقة الشبه بأروع أغنيات العالم ، وبعض الفقرات والأبيات التي أذكرها بديعة حقاً ولا زلت احفظها عن ظهر قلب ، أبدا لم تكتب اشعاره ، لقد ولدت ، عاشت ، وماتت ـ مثل هبات النسيم ـ في براءة لا تقاوم لكنها منحت الجمال والدفء للحظات عديدة لا بالنسبة له ولي فحسب وانما بالنسبة للكثيرين من الآخرين كذلك .

في ذلك الصباح تغنى بمفاتن الشمس على نحو ما يفعل في كافة اغانيه على وجه التقريب :

كالعذراء تنهض من خدرها ،

متألقة وملتفة بأفضل أثواب الأحد ،

على استحياء ، رغم ذلك في خيلاء ،

تخطو متهاوية من منحني الجبل .

كان حديثه غالباً مثقلاً بالفلسفة ، لكن أغانيه كانت لها خفة الطفل اذ يلهو في ملابس الصيف ، لم يكن بعضها يتجاوز ترنيمة غنائية ولا يعدو أن يكون مجرد مخرج يتدفق منه شعوره بالبهجة .

في ذلك اليوم انتقل إلىّ مزاجه النفسي كالعدوى ، رحنا نحيي كل من نلقاهم ونداعبهم ونخلف الضحك وراءنا في بعض الأحيان والمضايقات في أحيان أخرى ، مر يومنا بأسره كأنه يوم عطلة ، رحنا نتبادل النكات المستعادة من أيام الصبا ونستعيد ذكرى مزاح أيام الدراسة ، مضينا نطلق أسماء التدليل على الفلاحين الذين يمرون بنا وفي بعض الأحيان على خيولهم وثيرانهم ، توقفنا عند سور بستان لا يرى من الطريق وملأنا جوفينا بثمار شجرة. يبدو لي أنه على امتداد عمر صداقتنا القصير لم يلح نولب مرحا ومبتهجا ومسرورا على هذا النحو ، اعتقدت مغتبطا ان ذلك هو البداية الحقة لحياتنا السعيدة المنطلقة معا . عند الظهيرة اشتد القيظ ، فقضينا في الرقاد على النخيل وقتا أطول مما قضيناه في المسير ، ومنذ الأصيل تجمعت سحب عاصفة ، كان الهواء ساكنا وجاثما على الصدور فقررنا البحث

عن مأوى نقضي فيه الليل .

غدا نولب أقل ميلا الى الحديث ، كان بعض التعب قد حل به لكني لم الاحظ ذلك إذ واصل الضحك من قلبه كلما ضحكت واستمر في الغناء كلما رفعت عيني إليه ، أما أنا فغدوت اكثر مرحاً وحيوية من ذي قبل كأنما الألعاب النارية تتأجج بداخلي ،وربما كان الأمر على العكس تماماً من حال نولب ، ربما كانت أنوار يوم عطلته قد شرعت في الخفوت ، كان هذا شأني دائماً في ذلك الوقت ، ففي الأيام الطيبة كنت ازداد تدفقاً بالحياة كلما اقترب الليل ، ولو اني كنت بصدد امتاع نفسي لما كان بوسعي ان أتوقف ، وكم رحت أضرب ساعات طوالا وحيدا بلا رفيق بعد ان يكون الآخرون قد مضوا في كلال الى مراقدهم .

سيطر علي توهج الأصيل في ذاك اليوم ، حينما هبطنا الوادي. الفينا أنفسنا بازاء قرية متسعة ، تقت الى ليلة صاخبة ، اخترنا اول الأمر المكان الذي سنمضي فيه ليلتنا ، مخزن غلال مهجور يسهل الوصول اليه ، ثم مضينا الى القرية وجلسنا في حديقة نزل به ، فقد استضفت صديقي في ذلك المساء وحيث انه كان يوما من الأيام الابتهاج ظننت أننا سنتناول اقراصاً من الحلوى المقلوة وبضع زجاجات من الجعة .

قبل نولب الدعوة مغتبطاً ، لكننا حينما جلسنا الى المائدة في ظل شجرة دلب رائعة قال ببعض الحرج : «لا إسراف في

الشراب ، أليس كذلك ؟ سيسعدني أن احتسي زجاجة من الجعة ، ستفيدني وتشعرني بالمتعة لكن ذلك هو كل ما يمكنني تناوله » .

لم أجادله، حدَّثت نفسي بأننا سنحتسي قدر ما نشاء ، التهمنا الأقراص الساخنة من خبز الشوفان الطازج الطيب ، عليّ ان أقر بأني طلبت زجاجة اخرى من الجعة بينما كانت زجاجة نولب الأولى ما يزال نصفها باقياً، غمرتني البهجة للعودة الى مثل هذا النزل مرة اخرى والجلوس في مثل هذه الراحة والفخامة ، لم اكن في عجلة من امري لمغادرة المكان .

حين أتم نولب احتساء زجاجة الجعة دعوته الى تناول اخرى لكنه ابى ، اقترح علي ان نتريض قليلاً في انحاء القرية بدلاً من ذلك ثم نمضي الى مراقدنا مبكرين ، لم يكن ذلك هو كل ما في ذهني ، لم استطع ان احدثه بذلك مباشرة ، حيث لم تكن زجاجتي قد فرغت بعد لم أثر اعتراضا على انصرافه قبلي على ان نلتقي فيما بعد .

مضى ، رحت اتملاه وهو يهبط الدرج ويمرح يوم العطلة اللاهي يشق طريقه عبر الشارع المتسع المؤدي الى قلب القرية ، كان يضع زهرة نجمية خلف أذنه ، شعرت بالأسى لأنه لم يرغب في مشاركتي زجاجة جعة أخرى ، فيما كنت انظر اليه رحت أحدث نفسي بحب : يا له من رفيق رائع .

كانت الشمس قد اختفت في ذلك الوقت وأصبحت الحرارة أشد وطأة ، كنت في مثل هذا الطقس اتمتع بأن اعكف في هدوء على شراب بارد ، جلست في استرخاء الى مائدتي وأعددت نفسي للمكوث بعض الوقت ، وحيث أنني كنت الضيف الوحيد أتيح للساقية وقت طويل لتجاذب أطراف الحديث معي ، طلبت سيجارتين . كانت احداهما اصلا من أجل نولب لكني نسيت ذلك بعد برهة وقمت بتدخينهما .

بعد ساعة أقبل نولب وحاول ان يمضي بي بعيداً لكنني كنت قد ضربت جذوري في الأرض ، قال بأنه متعب ، فاتفقنا على أنه ينبغي أن يمضي الى مرقدنا وأن يأوي الى مهجعه ، ما ان غادرني حتى شرعت الساقية في طرح الأسئلة عنه ، كانت الفتيات دائمات التعلق به ، لم أكترث لذلك ، فقد كان صديقي ولم تكن هي فتاتي ، رحت أكيل الثناء له ، فقد كنت في حالة رائعة وأحببت العالم بأسره .

شرع الرعد يدوي والريح تصفر في لين عبر أشجار الدلب حينما تأهبت في النهاية في وقت متأخر للرحيل ، سددت حسابي نفحت الفتاة بتينز، وشرعت في المسير على مهل ، وقد أمضيت ردحاً من الزمن دون شراب ، وراودني الآن شعور بأني تزيدت في احتساء الشراب ، لكني لم أتخل عن الشراب وجعلني الخمار أشعر بالمرح فحسب ، غنيت خلال مسيرتي، عثرت بعد برهة

على مرقدنا ، دلفت في هدوء ، ألفيت نولب كما توقعت نائما . كان قد وضع سترته على الأرض ورقد فوقها بقامته ، كان جبهته وعنقه العاري وذراعه الممتدة يلمع ببريق شاحب في العتمة .

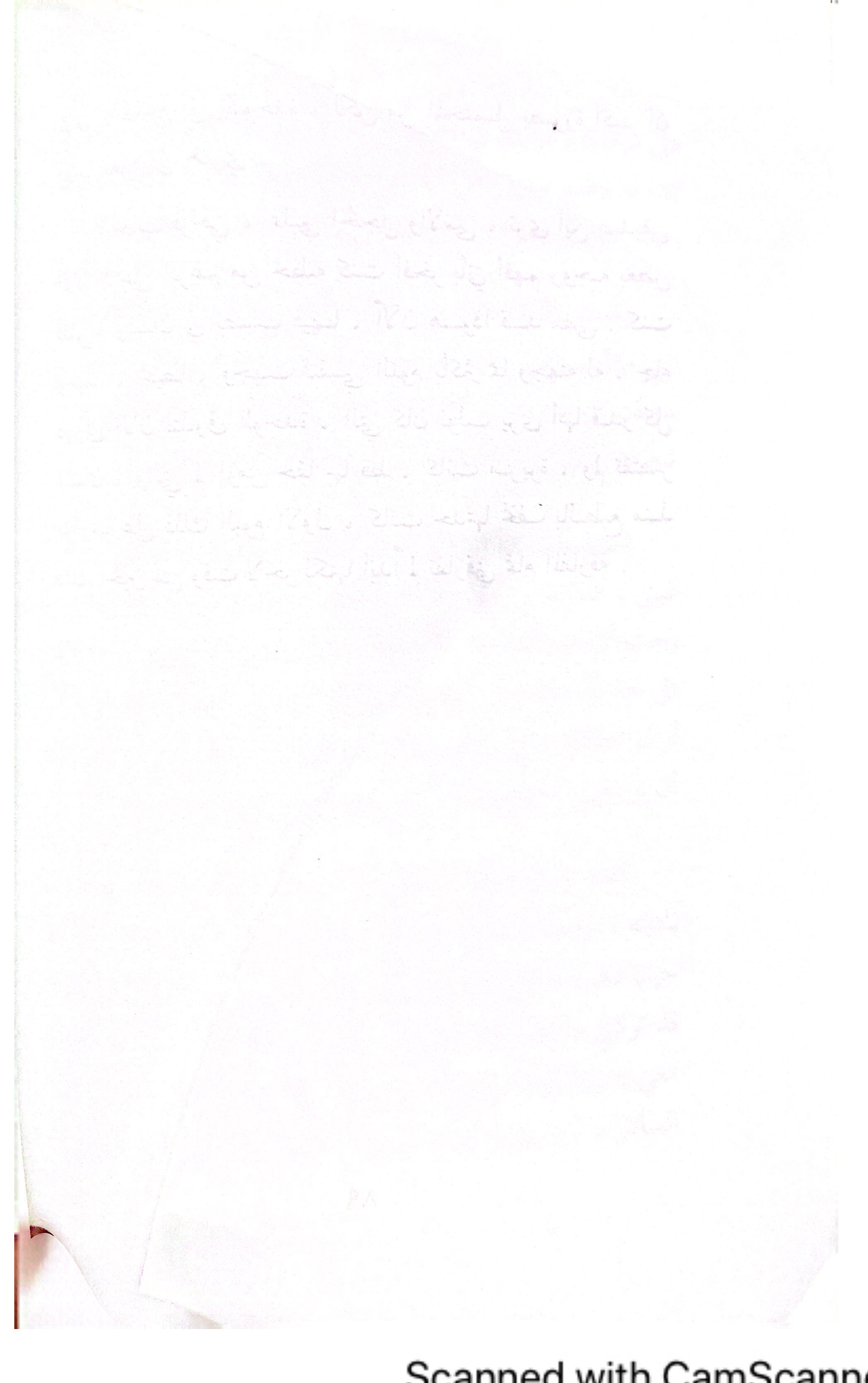
رقدت بكامل ملابسي ، لكن انفعالي وفكرة الانطلاق المرح التي ملأت رأسي بددا نعاسي ، وكان النور يمس السماء حينما سقطت في نوم عميق كئيب ، عميق ولكنه خال من السلام ، شعرت بالثقل والتكاسل وراودتني أحلام مؤرقة معذبة .

استيقظت متأخراً ، كان الوقت ضحى ، فآذى البريق عيني ، كانت رأسي خاوية تلفها السحب وعظامي تؤلمني ، رحت أتثاءب المرة بعد الأخرى وأحك عيني بيدي وأتمطع بعنف الى حد أن مفاصلي قرقعت ، بالرغم من كل إعيائي كنت لا أزال احتفظ برؤية الأمس وصدى مرحه البراق ، شعرت بيقين أن بوسعي التخلص من آلامي وأوجاعي عند أقرب نبع .

كنت على خطأ . فحينما تلفت حولي لم أجد نولب ، ناديته ، رحت أصفر له في البداية دون ان يراودني شك ، ولكن حينما ذهب ندائي وصفيري وبحثي عبثاً ، خطر ببالي فجأة أنه قد تركني ، نعم لقد مضى ، ابتعد دون كلمة ، لم يرد المكوث معي ، ربما أثار خماري اشمئزازه ، ربما خجل من مرحه في اليوم السابق ، أو ربما عرضت له رغبة طارئة ، أو سئم صحبتي أو

شعر بالحاجة الى الـوحدة ، لكن من المحتمـل بصورة أكبـر أن الأمر يعود الى خماري .

انجاب فرحي ، غلبني الخجل والأسى ، ترى أين صديقي الآن ؟ على الرغم من خطبه كنت أفخر بأني أفهم روحـه بعض الشيء وبـأن لي نصيب فيهـا ، ألآن هــوذا قــد مضى . كنت وحيداً ، محبطاً ، وجهت لنفسي اللوم بأكثر مما وجهته له ، جاء دوري الآن لتذوق الوحدة ، التي كان نولب يرى أنها قـدر كل انسان ، والتي لم اؤمن حقاً بها قط ، كانت مـريرة ، ولم تقتصر مرارتها على ذلك اليوم الأول ، كانت حدتها تخف بالـطبع منـذ ذلك الحين من وقت لآخر لكنها أبداً لم تفارقني تمام المفارقة .



النهــاية

كان اليوم من أيام اكتوبر المشرقة ، حركت دفقـات قصيرة متقطعة من الـريح الهـواء ، الذي وشتـه الشمس بالـدفء ، تصاعد الـدخان الأزرق الشـاحب المنبعث من مواضـع حـرق النفايات ، في غـلالات رفيعة متـرددة من الحقول والحـدائق ، ففغم الـريف المشع بـالنور بعـرف الخشب الأخضر والأعشاب المحترقة الحاد ، كانت بساتين القرية مزدهرة تحفل بزهور النجمة في سمت اكتمـال ألوانها والـورود الشاحبـة المتأخـرة عن أوانها وزهور الاضاليا ، وهنا وهناك على امتداد الأسوار كـانت زهور الكبونسين المتوهجة لا تزال تتألق وسط الغرنوقي الذابل .

مضت عربة دكتور ماشولد ، في بطء ، على امتداد الطريق الصاعد هوناً نحو بولاخ ، كانت حقول الذرة على يسار الطريق

قد تم بالفعل انجاز حصادها ، لكن محصول البطاطس لم يكن
قد جمع بعد ، على اليمين كانت هناك رقعة ممدودة من أشجار
الصنوبر وحائط بني اللون من جذوع الأشجار المتلاصقة
والفروع الذاوية ، وكان للأرض اللون البني الجاف ذاته ، وقد
كستها إبر الصنوبر الجافة ، كان الطريق يتناهى مباشرة عند
حافة سماء الخريف الزرقاء الرقيقة ، كأنما العالم ينتهي عند قمة
المرتقى .

أرخى الطبيب العنان لجواده العجوز ، وتركه يمضي كيفما
يحلو له ، كان قد انصرف لتوه عن فراش الموت ، الذي رقدت
فيه امرأة يعتقد انها تجاوزت مرحلة تلقي المساعدة ، صارع
مستميتاً من اجل حياتها حتى النهاية ، كان الاعياء قد أخذ منه
الآن وعمل السير الهادىء بالعربة عبر الريف على تهدئته ،
أمعنت افكاره ، وراحت تتابع في غبطة الصيحات التي امتزجت
برائحة الحرائق ، قادته الى ذكريات بهيجة غائمة لعطلات
الدراسة الخريفية ، وأوغلت به الى أصوات الطفولة وعتمتها
المجردة من الأشكال ، فقد نشأ في الريف ، وكانت حواسه
تستجيب بعرفان وغبطة لمؤشرات الفصول والمواضع .

حينما توقفت العربة ، كان النعاس قد اوشك ان يغلبه ،
دفعه الى الاستيقاظ ، كان جدول يمتد عبر الطريق قد احتجز
العجلتين الاماميتين ، توقف الجواد مغتبطاً وراح ينتظر خافضاً
رأسه مستمتعاً بهذه الاستراحة .

ايقظ الصمت المفاجيء ماشولد ، فأحكم قبضته على الأعنة ، وابتسم لمرأى الغابات واشراق السماء وصفوها بعد هنيهات غسقه الممدودات ، وبطرقعة ودودة من لسانه دفع الجواد الى التحرك مرة اخرى ، إعتدل في جلسته ، فلم يكن ليوافق على الاغفاء نهارا ، واشعل سيجارا ، مضى الجواد وئيدا في سيره ، حيث سيدتان ، تضعان على رأسيهما قبعتين عريضتي الحواف ، الطبيب من خلف صف طويل من اجولة البطاطس المتخمة .

في ذلك الوقت ، كانت القمة قد غدت قريبة ، رفع الجواد رأسه توقعاً وتوقاً الى المسيرة الطويلة الباقية حتى الدار عبر الجانب الآخر من التل ، هنا لاح رجل في الأفق القريب المتوهج نوراً ، وقف للحظة ، شامخاً ، طليقاً ، تلفه الزرقة البراقة ، ثم حينما شرع في هبوط المنحدر غدا رمادياً ضئيلاً ، اقترب فبدا نحيفاً ، ملتحياً ، رث الثياب ، ووضح اعتياده السير عبر الطرقات ، كانت مشيته توحي بالانهاك والألم ، لكنه رفع قبعته في كياسة ، وقال : « طاب يومك » .

– « طاب يومك » .

قالها دكتور ماشولد ، وتابع الغريب بناظريه حينما مضى في طريقه ، فجأة أوقف جواده ، إنبعث واقفاً ، التفت الى الخلف عبر غطاء العربة التي كانت تبعث بصريرها وهتف : « رويدك ، أقبل هنا لحظة ! » .

توقف جواب الآفاق المترب ، التفت الى الخلف ، ابتسم في اعياء ، أشاح بناظريه ، بدا كما لو كان سيواصل المسير ، غير رأيه واستجاب .

وقف الآن إلى جوار العربة ، وقبعته في يده . .

قال ماشولد : « هل بمقدوري أن أسألك الى أين تمضي ؟ » .

ـ « إلى الامام مباشرة نحو بير ختو لوسيج » .

ـ « ألا يعرف أحدنا الآخر ، الاسم وحده هو الذي يغيب عني ، أنت تعرفني ، أليس كذلك ؟ » .

« يمكن القول بأنك دكتور ماشولد » .

ـ « ماذا أقول لك ؟ لكن ما هو اسمك ؟ » .

ـ « لا بد أنك تعرفني ، يا دكتور ، فقد كنا معاً في صف دراسي واحد في بلوخير ، وقد اعتدت نسخ تدريبات اللغة اللاتينية الخاصة بي » .

انتفض دكتور ماشولد ، حدق في عيني الرجل ، ضحك ، وربت على كتفه .

ـ «الأمر كذلك، أنت نولب الشهير، وقد كنا رفيقي صف واحد ، دعني أصافحك ، أيها الصديق القديم !

لا بد أن عشر سنوات انقضت منذ التقينا لآخر مرة ، الا تزال تمضي على الطريق ؟ » .

ـ « لازلت على الطريق ، فالمرء يـزداد تمسكاً بعـاداته كلما أوغل في العمر » .

ـ « هذا صحيح ، أنا في الطريق الى جيربرسو ، إذ لدي مهمة صغيرة يتعين انجازها » .

ـ « أدرك ذلـك ، الا يـزال احـد من رفاقنـا على قيد الحياة ؟ » .

ـ « كلا ، لم يعد هناك احد » .

« لم تعـد تبدو شاباً يـافعاً ، يـا نولب ! كـلانا مـا زال في الأربعينيات من العمر . وها أنت ترغب في المرور بي على هـذا النحو ، لم يكن ذلك جميلا منك ، وكما تعلم ، فإنني اعتقد انك قد تكون بحاجة الى طبيب » .

ـ « ليس بي من بأس ، وأما ما بي حقا فما من طبيب يمكن ان يعالجه » .

ـ « سننظر في هذا ، مـا عليك الا أن تصعـد الى العربـة وتمضي معي ، فعـلى ذلـك النحـو نستـطيـع الحـديث بشكـل أفضل » .

تراجع نولب قليلاً ، وضع قبعته فوق رأسه ، وبنظرة حرج قاوم الطبيب حينما حاول مساعدته على صعود العربة .

قال : « ولم ؟ لن يعدو جوادك طالما أننا جالسان هنا » .

لكن نوبة من السعال غالبته عندئذ ، فأمسك به الطبيب ، الذي أدرك حينئذ كنه الأمر دون ان يضيف المزيد ، وعاونه على ركوب العربة .

قال وهو يقودها : « سوف نصل الى القمة خلال لحظة ، وما هي الا مسيرة قصيرة بعد ذلك ونصل الى الدار ، في خلال نصف ساعة ، ليس عليك قول أي شيء الآن مع هذا السعال ، بوسعنا تبادل الحديث حينما نصل الى الدار ، ماذا ؟ لا شيء من هذا ! ان مكان المرضى هو الفراش لا الطريق . لقد ساعدتني بما فيه الكفاية في دروس اللاتينية ، وقد حان دوري الآن » .

عبرا القمة ، راحت العربة تقعقع ، وهما يهبطان المنحدر الطويل . بعيداً في أسفل التل، كان بوسع المرء بالفعل ان يرى اسقف بولاخ عبر اشجار الفاكهة ، احكم ماشولد قبضته على العنان وراح يراقب الطريق بينما استسلم نولب بين الاغتباط والتردد لكرم صديقه الطاغي ، وراح يحدث نفسه قائلاً : « غدا ، او في أسوأ الأحوال بعد غد سأمضي في الطريق الى جيربرسو اذا كانت عظامي لا تزال متماسكة ، لم يعد ذلك الحدث اليافع الذي يمكنه ان يهدر ايامه واعوامه، كان كهلا مريضا رغبته الأخيرة الباقية ان يشاهد بلدته مرة اخرى قبل ان تحل النهاية » .

في بولاخ اصطحبه صديقه الى الغرفة الكبرى ،وقدَّم له لبنا وخبزا وشرائح من فخذ خنزير ، راحا يثرثران سويا ، وعلى مهل

استعادا الفتهما القديمة ، حينذاك فحسب بدأ الطبيب فحصه ، الذي احتمله المريض بروح طيبة وبلمسة من السخرية .

قال ماشولد حينما فرغ من الفحص : « أتعلم ما بك ؟ » قالها بخفة ودون ايحاء بالخطورة ، الأمر الذي أثار امتنان نولب .

قال : نعم يا ماشولد ، أعلم ، انه السل ، وأعلم أنه ليس بمقدوري ان اصمد طويلاً » .

ـ « لا يمكنك القطع بذلك على الاطلاق ، عليك فحسب ان تضع في ذهنك انك بحاجة الى فراش والى عناية ، اما الآن فبمقدورك البقاء معي هنا ، وسأجد لك فيما بعد مكاناً في أقرب مستشفى ان لك افكاراً مجنونة ، يا بني ، وسيتعين عليك ان تعي الأمور جيداً اذا ما أردت ان تبل من مرضك » .

ارتدى نولب سترته ، التفت الى الطبيب ، وقد ارتسمت اللامبالاة على وجهه الهضيم الكابي ، قال بسماحة : « ماشولد ، ستواجه متاعب جمة بسببي ، ذلك جميل منك ، لكن الأوان فات ، لا ينبغي ان تتوقع الكثير مني » .

ـ « سنرى ذلك ، اما الآن فعليك بالجلوس في الشمس ، طالما انها تأتلق في الحديقة ، ستعد لينا الفراش في غرفة الضيوف ، علينا ان نرعاك ، يا نولب ، فحينما يلقى رجل قضى حياته بأسرها تحت الشمس وفي الهواء الطلق متاعب في الرئة ، من بين كافة الأمور ، فلا بد ان هناك ما لا يسير على ما يرام » .

قال ذلك ثم مضى مخلفا صديقه .

لم تكن لينا ، مدبرة المنزل ، تشعر بالحبور ازاء فكرة ترك جواب آفاق عادي يدلف الى حجرة الضيوف . لكن الطبيب بادرها قائلاً : « ليكن ، يالينا ، فالرجل لن يعمر طويلاً ، دعينا نكفل له الراحة قليلاً ، لقد كان نظيفاً دائماً ، وسنحرص على ان يستحم قبل ان يدلف الى الفراش ، قدمي له إحدى مناماتي ، وربما ان بوسعك اعطاؤه خفي الشتويين، لاتنسي انه صديقي» .

رقد نولب إحدى عشر ساعة ، كان النعاس لا يزال يلفه في الصباح الضبابي ، مر بعض الوقت قبل ان يتذكر موضعه ، حينما اشرقت الشمس تركه ماشولد ينهض .

الآن بعد تناول طعام الغذاء ، جلسا في الشرفة المشمسة ، عاكفين على قدحين من النبيذ الأحمر ، كانت الوجبة الطيبة ونصف قدح النبيذ قد جعلا نولب يتدفق حياة ويميل الى الحديث ، كان الطبيب ينتزع ساعة من عمله ليثرثر مع صديقه العجوز الغريب، ربما ليعرف بعض الأمور عن حياته غير المألوفة .

قال باسما : « هكذا فإنك اجمالاً راض عن الحياة التي عشتها ، ذلك يجعل كل شيء على ما يرام والا فستراودني الرغبة في القول بأنك كان يمكن ان تصنع من نفسك اكثر مما انت عليه ، ما كان عليك ان تصبح قسا او مدرسا ، كان يمكن ان

تغدو دارساً للطبيعة او شاعراً ، لا اعرف المدى الذي ذهبت اليه في تنمية مواهبك او استخدامها ، ولكنك ان كنت قد استخدمتها فقد كان ذلك لصالحك تماما ، ام تراني على خطأ ؟ » .

اسند نولب ذقنه بلحيتها المتناثرة الشعر على كفه المطبقة ، وراح يراقب الانعكاسات المتماوجة فوق غطاء المائدة الملتمع في أشعة الشمس خلف قدحه .

ببطء قال : « ليس ذلك صحيحاً تماماً ، فمواهبي كما تسميها لا تعني الكثير ، إنني أجيد الصفير ، استطيع العزف على الاكورديون ونظم قصيدة صغيرة بين الفينة والأخرى ، كنت عداءاً جيداً ، ولم اكن راقصاً سيئاً ، تلك هي جل مواهبي ، لكني لم اتمتع بها وحدي ، فدائماً على وجه التقريب كان هناك اصدقاء حولي او فتيات او اطفال ، وقد منحتهم هداياي الصغيرة السرور ، وفي بعض الأحيان كانوا يشعرون بالعرفان نحوي ، لم انشد المزيد ؟ الا نستطيع الاكتفاء بذلك ؟ » .

قال الطبيب : « بلى ، بوسعنا حقا ، لكن لديّ شيئاً واحداً أود سؤالك عنه ، لقد درست اللاتينية حتى الصف الخامس ، اذكر ذلك بوضوح ، كنت طالباً جيداً ، وان لم تكن نموذجاً للكمال على وجه الدقة ، وذات يوم اختفيت ، سمعت انك مضيت الى مدرسة عامة ، وكانت تلك نهاية صداقتنا ، ففي تلك

الأيام لم يكن لطالب مدرسة لاتينية ان يصادق احداً في مدرسة عامة ، كيف حدث ذلك ؟ فيما بعد ، وحينما يأتي احد على ذكرك ، كنت احدث نفسي قائلاً : لو انه ظل معنا في المدرسة اللاتينية لتغير مجرى حياته ، اذن فحدثني ما الذي وقع ؟ هل ضقت بالأمر ذرعاً ؟ الم يستطع والدك دفع الرسوم ؟ ام كان هناك شيء آخر ؟ » .

ضم المريض يده البنية المهزولة على قدحه ، رفعه ، لكنه لم يشرب ، راح يحدق عبر النبيذ الى نور الحديقة الخضراء ، وضع القدح بعناية على المنضدة مرة اخرى ، اغمض عينيه في صمت ، وضل في متاهة من الأفكار.

تساءل صديقه : « ايضايقك الحديث عن ذلك ؟ ما من حاجة تدعو اليه » .

فتح نولب عينيه ، ورمق ماشولد بنظرة طويلة فاحصة .

قال ، ومازال على تردده : « لا ، اعتقد ان هناك حاجة تدعو الى ذلك ، تدرك انني لم اتحدث اطلاقاً عن هذه الأمور مع احد ، لكن ربما يتعين ان يعرف احد الآن ، انها قصة طفولية لا اكثر ، لكنها كانت هامة بالنسبة لي ، لقد عذبتني سنوات طوال ، ومن الغريب انك طرحتها » .

ـ « ولم ؟ » .

ـ « لأنها كانت تدور بذهني مؤخراً ، وذلك هو السبب في أني في طريقي الى جيربرسو » .

ـ « في هذه الحالة عليك بالحديث عنها » .

ـ « أتذكر يا ماشولد ؟ كنا صديقين حميمين في ذلك الوقت ، ربما حتى الصف الثالث او الرابع ، بعد ذلك لم يعد احدنا يرى الآخر كثيراً ، ومرات عديدة رحت تصفر خارج دارنا ولم أبادر بالرد » .

ـ « يا الهي ، هذا صحيح ! لم يخطر ذلك ببالي طوال عشرين عاما ، اي ذاكرة تلك التي تتمتع بها ! إستمر ! » .

ـ « يمكنني الآن ان احدثك بما جرى ، كانت الفتيات هن السبب ، كان شغفي بهن قد بدأ في وقت مبكر للغاية ، وفي وقت كان من المعتقد فيه انك لا زلت تلهو بحاجيات الأطفال كانت لدي فكرة واضحة تماما عما يفعله الفتية والفتيات معا ، لم يعد بامكاني ان أفكر في أي شيء آخر ، وذلك هو السبب في أني كففت عن ممارسة لعبة الهنود معك ومع الأصدقاء الآخرين » .

ـ « لكنك كنت في الثانية عشرة فحسب ! » .

ـ « كنت في الثالثة عشرة تقريباً ، فأنا أكبرمنك بعام، ذات يوم ، وبينما كنت ملازماً فراش المرض ، قدمت فتاة من قريباتي للاقامة معنا ، كانت اكبر عمرا مني بثلاثة اعوام او اربعة ،

شرعت تعابثني ، وحينما استرددت عافيتي دلفت ذات ليلة الى غرفتها واكتشفت ما تعنيه المرأة ، تملكني الفزع ، فاندفعت هارباً ، لم أتبادل الحديث بعد ذلك مع قريبتي، كنت أشعر بالتقزز والخوف منها ، لكنها منحتني الفكرة ، بعدها كان كل ما يشغلني هو مطاردة الفتيات ، كانت لهاسيس الدباغ ابنتان في مثل عمري ، وكانت هناك فتيات أخريات في المنطقة المجاورة ، كنا نمارس لعبة الاختباء والبحث في العلية المعتمة ،وكنا نتضاحك ونتبادل العبث ونقوم بأمور سرا، كنت معظم الوقت الفتى الوحيد بينهن ، بين الحين والآخر كانت إحدى الفتيات تتركني اجدل شعرها او تقبلني ، كنا جميعاً أطفالاً ، ولم نكن نميز الأمور حقاً ، لكن كل شيء كان بديعاً ، حينما كانت الفتيات يذهبن للسباحة كنت اختبىء بين الشجيرات واراقبهن ، وذات يوم ظهرت فتاة جديدة ، كانت تقيم في الضواحي ، ويعمل والدها في مصنع الغزل ، كان اسمها فرانزيسكا ، احببتها من اول نظرة » .

قاطعه الطبيب قائلاً : « ما اسم والد الفتاة ؟ ربما كنت اعرفها » .

ـ « معذرة ، يا ماشولد ، اوثر الا اخبرك ، فلا علاقة لذلك بالقصة ولست ارغب في ان يعرف احد ذلك عنها ، على اية حال كانت اكبر سنا وأقوى مني ، كنا في بعض الأحيان نتدحرج ونتصارع ، حينما كانت تعتصرني حتى الألم كان ذلك

يجعلني اشعر بالدوار وما يشبه الخمار ، احببتها ، كانت اكبر مني بعامين ، دأبت علي القول بأنها تعتزم اتخاذ حبيب لها قريبا ، كان كل ما انشده في العالم بأسره ان اصبح حبيبها ، ذات يوم كانت تجلس وحيدة تماما في حديقة الدباغ قرب النهر، وقد تدلت قدماها في الماء ، كانت تستحم وكل ما ترتديه هو ثوبها الداخلي ، مضيت ، فجلست الى جوارها ، استجمعت فجأة شجاعتي ، وحدثتها بأني أرغب في ان تكون حبيبتي ، لكنها رمقتني بنظرة اشفاق من عينيها الكستنائيتين ، قالت : « لست الا طفلا يرتذي سراويل قصيرة ، ما الذي تعرفه عن الحب ؟ » حدثتها بأني اعرف كل شيء عنه وانها ان لم تصبح حبيبتي لألقيتها في النهر والقيت نفسي معها ، اثار ذلك اهتمامها ، رمقتني بنظرة انثوية ، قالت : « دعنا نجرب ، اتعرف كيفية التقبيل ؟ أجل، قلتها ، وقبلت شفتيها قبلة سريعة ، لكنها امسكت برأسي ، واحكمت قبضتها ، وقبلتني قبلة حقيقية شأن امرأة مكتملة الأنوثة حتى زاغ بصري ، قالت : « ستلائمني على أية حال ، يا فتاي ، لكن ذلك لا يمكن ان يحدث ، فليس بامكاني ان اتخذ حبيبا يرتاد المدرسة اللاتينية ، انهم لا يصنعون رجالا حقيقيين ، وانا بحاجة الى رجل حقيقي اتخذه حبيبا ، ميكانيكيا او عاملا ، لا مثقفا ، لذا فليس الأمر بالامكان » ، لكنها جذبتني اليها ، كان جسدها متماسكا ، دافئاً ، لين الملمس بين ذراعي ، فلم يعد بوسعي الحلم بتركها ، وعدتها بأني سأترك المدرسة

اللاتينية ، واغـدو ميكانيكيـا ، انبعثت ضاحكـة لكني ما كنت لأتراجع ، في النهاية قبلتني مـرة اخرى ، وعـدتني بأنها اذا ما تركت المدرسة اللاتينية ستصبح حبيبتي واني سأسعد معها » .

توقف نولب ، أخـذته نـوبة سعـال ، تطلع اليـه صديقـه بـانتباه ، للحـظة لفهـما الصمت ، ثم تـابـع نـولب حـديثـه : « طيب ، الآن الممت بالقصة ، بالطبع لم تجر الأمـور بالسـرعة التي تـوقعتها ، لـطمني ابي حينما حـدثته بـأني لم اعـد ارغب في الذهاب الى المدرسة اللاتينية ، في البداية حرت ما الـذي يمكن ان أصنعه ، فكرت مرات في اشعال النار بمدرستنا، كان ذلـك عبثـا طفوليـا ، لكني كنت جادا فيـما يتعلق بفكرتي الـرئيسية ، اخيرا فكرت في مخرج ، فكففت عن التصرف كطالب جيد ، الا تذكر ذلك ؟ » .

ـ « بلى ، اذكر ذلك الآن ، ولبعض الوقت كنت تعـاقب يوميا » .

ـ « هذا صحيح ، توقفت عن حضور الـدروس ، أجبت بردود خاطئة ، تعمدت عدم القيادم بواجباتي المنزلية ، فقـدت كـراساتي ، كنت أرتكب خـطأ كل يـوم . وفي النهـايـة بـدأت استمتـع بذلـك ، من المؤكد اني ضـايقت المدرسـين ، في ذلك الـوقت كنت قد فقـدت كل اهتمـامي باللغـة اللاتينيـة وما الى ذلك ، كنت مندفعاً دائماً كما تعلم ، فحينما اتحمس لشيء جديد

لا يعود هناك شيء آخر في العالم ، كـان الأمر كـذلك بـالنسبة للرياضة ثم بالنسبة لصيـد السمك فعلم النبـات ، الآن حدث الأمـر ذاته بـالنسبة للفتيـات ، وحتى انغماسي في لهـو الشبـاب وتكامل تجاربي لم يحدث أمر آخر ، من المؤلم للغاية ان تجلس في فصل مدرسي مردداً تصريفات الأفعال بينما كل ما يمكنك التفكير فيه حقاً هو ما رأيته يوم كـانت الفتيات يسْبحن ورحت تختلس النظر اليهن ، طيب ، هكذا الأمـر ، وربما خمن المـدرسون مـا هناك ، كانوا يحبونني ، فأغضوا طالما كان ذلك ممكناً ، كان يمكن ان تمنى خطتي بالفشل لو لم أصادق شقيق فرانزيسكا ، كـان في الصف الأخير من المـدرسـة العـامـة ، لم يكن بـالفتى الـدمث الأخـلاق ، تعلمت منه الكُثير ، وكان كـل ما تعلمتـه سيئاً ، خلال أشهر قلائل حققت ما أردته ، عاقبني أبي عقاب العمر ، لكني كنت قد طردت من المـدرسة الـلاتينية ، والتحقت بصف شقيق فرانزيسكا » .

تساءل ماشولد : « والفتاة ؟ ماذا عنها ؟ » .

ـ « كان ذلك أسوأ ما في الأمر ، فلم يحدث أبداً ان غدت حبيبتي ، وحينما شرع أخوها في اصطحابي الى الـدار كفت عن سلوكها الطيب معي ، عاملتني كما لو كنت قد انحدرت في هذا العالم ، بعد قضـاء شهرين في المـدرسة العـامة تعـودت التسلل خارج الـدار بعـد حلول الـظلام ، في ذلـك الـوقت اكتشفت

الحقيقة ، فذات ليلة كنت اتجول في الحديقة ، كان ثمة عاشقان يقتعدان إحدى الارائك ، وقفت هناك على نحو ما أفعل بين الحين والآخر اختلس النظر واسترق السمع ، حينما امعنت في الاقتراب ادركت انهما فرانزيسكا وميكانيكي شاب ، لم يلاحظاني ، كانت ذراعه تلتف حول عنقها وهو يمسك بسيجارة ، كانت كنزتها قد فكت أزرارها ، و . . . ، طيب ، كان الأمر مرعبا ، ذهب كل عنائي سدى » .

ربت ماشولد على ظهر صديقه : « ربما كان ذلك أفضل » .

ـ « لا ، بالتأكيد لم يكن أفضل ، ولا زلت على استعداد لأن أضحي بيميني مقابل اختلاف الأمر عما صار اليه ، لا تقل كلمة ضد فرانزيسكا ، فلم تكن لها يد فيما حدث ، ولو ان الأمور سارت على ما يرام لكانت تجربتي الأولى في الحب تجربة جميلة سعيدة ، ربما كان ذلك قد ساعدني على اعتياد المدرسة العامة وإعادة الأمور الى مجراها مع أبي، لأنه كما تدرك . . . ماذا عساني أقول ؟ منذ ذلك الحين اصبح لي اصدقاء طيبون وأصدقاء عابرون بل وصديقات ، لكني لم اعتمد ابدا على وعد احدهم ، ولم اعط وعدا لأحد ، أبدا لم يحدث ذلك مرة اخرى ، لقد عشت حياتي وفق ما رأيته مناسباً ، كان لي نصيبي من الحرية والاطايب لكني كنت وحيدا دائما » .

التقط قدحه ، ارتشف بعناية قطرات النبيذ القليلة الباقية ، وانبعث واقفا .

ـ « اذا لم يضايقك الأمر فأعتقد أني سآوي للفراش مرة اخرى ، لست ارغب في المزيد من الحديث عن الأمر ، ولا بد ان لديك امورا تشغلك » .

أومأ الطبيب موافقاً : « كلمة واحدة فحسب ، سأكتب خطابا الآن لأرى ما إذا كان بوسعي ادخالك المستشفى ، ربما لا تروق لك الفكرة ، لكنه ما من سبيل آخر ، لسوف تنتهي ما لم تلق الرعاية المناسبة سريعاً » .

صاح نولب بعنف غير مألوف : « وما الفارق ؟ سأنتهي على أي حال ، لا جدوى الآن ، وأنت تعلم ذلك ، لم أترك نفسي أسجن ؟ » .

ـ « لا تقل ذلك ، يا نولب ، عليك بالتعقل ، أي طبيب أنا اذا ما تركتك تهيم على وجهك بحالتك تلك ؟ لسوف نحصل على سرير لك في أوبير شتيتين ، سأعطيك خطابا ، وخلال الأسبوع المقبل سأمضي لأتابع حالتك ، ذلك وعد مني » .

غاص جواب الآفاق في مقعده ، بدا موشكا على البكاء ، مضى يفرك يديه ، كما لو كانتا باردتين ، ثم التفت الى الطبيب بنظرة مفعمة بالتوسل الطفولي .

بصوت بالغ الرقة قال : « طيب ، اذا كان الأمر كذلك ، فإن لدي معروفاً كبيراً أناشدك ان تسديه اليّ ، لا تغضب ، ليس ذلك جميلاً مني ، فقد اسديت إليّ الكثير ، وقدمت لي حتى

النبيـد الأحمـر ، كنت طيباً للغـايـة ، ولست استحق ذلـك ، لكن . . . » .

ربت ماشولد كتفه ليعيد الثقة اليه : « لا تكن سخيفاً ، أيها الصديق القديم ، لا أحد يحاول ارغامك ، عليّ بالأمر ! » .

ـ « الن تغضب ؟ » .

ـ « كلا بالطبع ، ولم اغضب ؟ »

ـ « إذن ، يا ماشولد ، فاني أرجوك ، انه معروف كبير ، لا تـرسلني الى أوبـير شتيتـين ، إذا كـان لا بـد من ذهـابي الى مستشفى ، فان أود الذهاب الى جيربـرسو ، النـاس يعرفـونني هناك ، سأشعر بأني في داري ، ربما كان ذلك أفضل للمستشفى كذلك ، فقد ولدت هناك ، أضف الى ذلك . . . » .

بحـرارة تـوسلت عينـاه ، تملكـه الانفعـال ، فعجـز عن الحديث .

حدث الطبيب نفسه بأنه محموم ، قال بهدوء : « إذا كـان ذلـك هو كـل ما تبغيـه فقد اتفقنـا ، فكرة طيبـة ! سأكتب الى جيـربرسـو ، الآن امض الى فراشـك ، فقد تحـدثت أطول مما ينبغي » .

تابع جواب الآفاق بناظريـه وهو يـدلف الى الدار ، فجأة تذكر الصيف الذي علمه نولب خلالـه كيف يصيد السمـك ، راح يفكر في الصبي الوسيم الودود ذي السنوات الاثنتي عشرة

وفي طريقته المفعمة بالاعتداد والالمام في معاملة اصدقائه .

كان الصباح التالي غارقاً في الضباب ، فمكث نولب طوال اليوم في الفراش ، كان الطبيب قد أحضر له بضعة كتب ، لكنه لم يمسسها ، كان قلقاً ومكتئباً ، فالآن وهو يحيا في كنف الراحة ، يحظى بطعام طيب وفراش وتير كان يشعر بوضوح يفوق ما عهده من قبل ان النهاية وشيكة .

راح يحدث نفسه : « لو اني رقدت هنا أياماً قلائل أخرى لما نهضت ثانية » ، لم يعد يكترث بالحياة كثيراً ، ففي السنوات القليلة الأخيرة كان الطريق قد فقد كثيراً من جاذبيته بالنسبة له ، لكنه لم يكن يرغب في ان يلقى منيته الا بعد ان يرى جيربرسو ويودع اماكن عديدة ، النهر ، الجسر ، السوق ، حديقة ابيه العتيقة ، وفرانزيسكا كذلك ، كانت قصص حبه الأخيرة قد غمرها النسيان تماماً كما تراجعت سنوات تجوله الطويلة في ذاكرته وفقدت اهميتها بالنسبة له بينما اكتسبت أيام صباه الغامضة توهجا وسحرا جديدين .

راح يفحص حجرة الضيوف عن كثب ، لم يكن قد عاش على هذا النحو المترف لسنوات طوال ، تلمس بعينين خبيرتين وأصابع حساسة نسيج اغطية الفراش والدثار الناعم المصنوع من الصوف الطبيعي واغطية الوسائل البديعة ، اثارت الأرضية الخشبية الصلبة اهتمامه كذلك وعلى الحائط كانت هناك صورة

لقصر الدوق في اطار من الفسيفساء البلورية .

رقد برهة طويلة بعينين مفتوحتين غائمتين ، شفه الاعياء ، فما عاد يكترث لشيء خلا ما يجري في جسده العليل ، لكنه فجأة شرع في النهوض ، انحنى خارجاً من الفراش وبأصابع متعجلة التقط حذاءه ، فحصه بعناية خبير ، كان في حالة سيئة لكن اكتوبر كان قد أقبل بالفعل وسوف يصمد حتى أولى بشائر الجليد ، عندئذ سينتهي كل شيء ، خطر له ان يطلب من ماشولد حذاءاً قديماً ، لا ، ان ذلك حري باثارة شكوكه ، فأنت لا تحتاج الى حذاء في المستشفى ، مرر أصابعه فوق التشققات التي تعلوه، لو انه دلكها جيداً ببعض الشحم لصمد الحذاء شهراً آخر بالتأكيد ، فلا داعي للقلق ، لسوف يفوقه حذاؤه العتيق عمرا ، ويظل صالحاً للاستخدام حينما يختفي صاحبه من الطرقات .

ألقى بالحذاء ، حاول التنفس بعمق لكن ذلك آلمه وهيج سعاله ، رقد ساكناً ، راح ينتظر ملتقطاً انفاساً قصيرة ، عذبه لخوف من التخاذل قبل ان يحقق رغبته الأخيرة .

حاول التفكير في الموت ، على نحو ما كان يفعل بين الحين والآخر ، لكن ذلك ارهقه فأخذته سنة من النوم ، حينما استيقظ عقب ذلك بساعة شعر بالانتعاش والهدوء كأنه رقد أياماً ، فكر في ماشولد ، شعر بأنه يود لو ترك له رمزاً لعرفانه حينما يمضي

بعيداً ، قرر ان يكتب احدى قصائده ، فقد سأله الطبيب عنها في اليوم السابق فحسب ، لكنه لم يستطع تذكر ايا منها او انه لم يعبأ بما يذكره ، تطلع من النافذة ، شاهد الضباب يلف الغابات القريبة ، شرع يحدق فيها حتى غلبته افكاره ، من درج المنضدة المجاورة ازال الورقة البيضاء الناصعة التي كانت تبطنه ، وكتب بقلم التقطه من الدار .

لا بد للزهور ان تذوي ،
حينما يحل الضباب .
لا بد للناس من الموت،
والانحدار الى قبورهم .
الناس زهور ،
هم ايضا سيرجعون
في زمن الربيع ،
عندئذ لن يحل بهم المرض مرة اخرى ،
سيعتقدون كل شيء .

توقف ، طالع ما كتبه ، لم تكن أغنية حقيقية ، فقد غابت عنها القوافي لكن كل ما أراد ان يقوله كان وارداً بها ، بلل القلم بلسانه وكتب تحتها : « الى الدكتور ماشولد من صديقه الممتن . ن » .

ثم وضع الورقة في الدرج الصغير .

في اليوم التالي كان الضباب لا يزال مخيماً ، لكن الهواء كان بارداً وحاداً ، بـدا محتملاً ان الشمس ستشـرق عند الـظهيرة ، اقبل ماشولد ، وابلغه ان هناك فراشاً له في مستشفى جيربرسو ، وانهم ينتظرونه هناك ، حينها رجاه نولب ان يسمح له بالنهوض وافق على هذا الرجاء .

قـال نولب : « سـأقـوم بجـولـة عقب الغـذاء مبـاشـرة ، سيستغرق الأمر أربع ساعات وربما خمسا » .

ضحك ماشولد « هذا كل ما تحتاجه ! لا تجوال في الـوقت الحالي ، اذا لم نجد اي شيء آخر ، سأحملك في عربتي ، سوف أسأل العمدة فربما كان بسبيله الى ارسال ملء عربة من الفاكهة او البطاطس الى المدينة ، لا يهم يوم اكثر أو أقل » .

استسلم الضيف ، بعث العمدة برسالة يقول فيها ان اجيره سيمضي بعجلتين الى جيربَرسو في اليوم التالي ، فتقرر ان يمضي نولب مع الأجير .

قال ماشولد : « لكن بـوسعك استخـدام معطف اثقـل ، أتستطيع ارتداء احد معاطفي ام انه سيكون فضفاضاً ؟ » .

لم يبد نولب اعتراضاً ، تمت تجربة المعطف ووجد مناسباً ، وحيث كـانت نوعيتـه جيدة ومـازال في حالـة ممتازة قـرر نـولب بخيلائه الطفولي في الحال ان يحكم الأزرار ، راح الطبيب يتطلع اليه مسرورا ، وخلع عليه ياقة قميص لتكتمل الصورة .

في ذلك الأصيل راح نولب في سرية بالغة يتطلع الى صورته في ملابسه الجديدة ، كان يبدو أنيقاً الى حد انه شعر بالأسى لعدم قيامه بحلاقة لحيته مؤخراً ، لم يجرؤ على طلب موس الحلاقة الخاصة بالطبيب من مدبرة الدار لكنه كان يعرف حداد القرية ، فمضى ليرى ما يمكن عمله في هذا الصدد .

سرعان ما عثر على حانوت الحداد فولجه ملقيا بالتحية على الصانع العجوز : « حداد عجوز من أراض غريبة يطلب عملا ».

تفحصه الحداد ببرود ، قال « لست حداداً ، ولا يمكنك خداعي » .

ضحك نولب : « في ذلك من الحقيقة ما يكفي ! لازلت تتمتع ببصيرتك ، مضحك انك لم تعرفني ، أتذكر ؟ كنت موسيقياً ومرات عديدة رقصت على عزفي للاكورديون في ليالي السبت في هايرباخ » .

عقد الحداد حاجبيه ، راح يمعن التذكر للحظات قلائل ، ثم مضى بنولب الى الضوء وراح يتفحصه .

بضحكة قصيرة قال : « تذكرت ، أنت نولب ، الناس يطعنون في السن حينما لا تراهم لوقت طويل ، ماذا تصنع في برلاخ ، بوسعي أن أتيح لك تينز وقدحاً من العصير » .

ـ « جميل منك ذلك ، أيها الحداد ، وأقدره لك ، لكني انشد شيئاً آخر ، هل تقرضني موساك لبضع لحظات، فسوف أمضي للرقصْ الليلة » .

مد الحداد اصبعه مهدداً، قال : « أنت أيها الملفق العجوز ! انظر كيف تبدو ، يلوح لي انه ليس بوسعك الحرص على شهود الرقص » .

ضحك نولب بمرح ضحكة مكتومة : « لا يفوتك شيء ، كان ينبغي ان تصبح قاضياً ، طيب ، نعم سأمضي الى المستشفى غداً ، سيرسلني ماشولد الى هناك ، طبيعي اني لا أستطيع الظهور بهذه الملحفة على وجهي ، اعطني موساك ، وستسعيدها خلال ساعة » .

ـ « والى اين تمضي بها ؟ » .

ـ « الى دار الطبيب ، فأنا أقيم هناك ، هل يمكنني أخذها ؟ » .

لم تبد قصة نولب جديرة بالتصديق تماما ، فساورت الشكوك الحداد .

ـ « تستطيع اخذها ، لكنها ليست موسى عادية ، كما تعلم ، انها من طراز سولنجين الأصلي ، وأريد ان اراها ترد اليّ » .

ـ « لسوف تراها » .

ـ « بالطبع ، لنقل ، هذا معطف جميل ذاك الذي ترتديه ، ولن تحتاجه لتحلق لحيتك وأنت ترتديه ، ماذا أقول لك ! انزعه ودعه معي ، وحينها تعود بالموس سأعطيك معطفك » .

تجهم نولب : « ليكن ، انك لست اميرا على وجه الدقة ، لكنها مبادلة » .

احضر الحداد الموس ، ترك نولب معطفه كرهينة ، لكنه لم يوافق على ان يمسه الحداد الكئيب ، عقب نصف ساعة اعاد الموس ، كانت لحيته الشعثاء قد اختفت ، وبدا مختلفاً تماماً .

قال الحداد باعجاب : « الآن كل ما تحتاجه هو زهرة خلف أذنك وتغدو متأهباً للمضي لخطب ود النساء » .

لكن نولب لم يعد في حالة مزاجية مرحة ، ارتدى معطفه ، اعرب عن شكره للحداد ، وغادر الحانوت .

في الطريق الى الدار قابل الطبيب الذي استوقفه .

سأله فزعاً « أين كنت ؟ ما أغرب ما تبدو ! آه ، لقد حلقت لحيتك ، يا لك من طفل كبير ! » .

لكنه كان مسروراً ، وفي ذلك المساء احتسى نولب النبيذ الأحمر مرة اخرى ، احتفل الصديقان بافتراقهما ، وهما يتظاهران بالمرح ، ويقمعان اي دلالة على الأسى .

في الصباح الباكر اقبل اجير العمدة بالعربة ، كان العجلان يقفان بأرجل مرتعدة في اقفاص خشبية ، يحدقان بأعين واسعة في الصباح البارد ، كانت بشائر الجليد تمتد عبر السهوب ، مدت يد المساعدة لنولب كي يجلس في المقعد الأمامي الى جوار الأجير ، ووضع دثار على ركبتيه ، حيا الطبيب نولب شادا على يديه وقدم نصف مارك للأجير ، وبينما راحت العربة تصلصل مبتعدة اشعل الأجير غليونه ، راح نولب يحدق والنعاس يداعبه في الصباح البارد الأشهب .

فيما بعد اشرقت الشمس ، عند الظهيرة كان الجو دافئاً على نحو بهيج ، مضى الرفيقان الجالسان في المقعد الأمامي بالعربة في مسيرة رائعة ، حينما وصلا جيربرسو اصر الأجير على الخروج عن طريقه لاصطحاب نولب الى المستشفى لكن نولب سرعان ما اقنعه ، وافترقا صديقين عند حافة المدينة ، وقف نولب الى جانب الطريق ، تابع العربة بناظريه حتى اختفت تحت أشجار الاسفندات بالقرب من سوق الماشية .

ابتسم ، يمم شطر طريق لا يعرفه الا ابناء البلدة يمر بين البساتين، كان حراً مرة اخرى ، وبوسعهم الانتظار في المستشفى .

من جديد راح العائد الى موطنه يعب هواءاً ونوراً وأصوات وعبق بلدته ، الشعور الباعث على السلام بأن المرء في داره ،

ضجيج المزارعين وابناء المدينة في سوق الماشية ، ظلال أشجار الكستناء البنية التي تتخللها الشمس ، فراشات الخريف الداكنة في تحليقها الجنائزي الى جوار سور المدينة ، صوت نافورة السوق بجداولها الأربعة ، رائحة النبيذ ، الطرق الخشبي الأجوف المنبعث من باب صانع الأواني المقنطر ، اسماء الشوارع المألوفة وقد التف كل منها في فيض كثيف لا يقر له قرار من الذكريات ، بكل كيانه مضى جواب الآفاق يعب نشوة الموطن ، التعرف ، الذكرى ، الرفقة مع كل طريق وركن وحجر من احجار الأرصفة ، طوال الأصيل مضى يتجول دونما كلل منتقلا من شارع الى آخر ، راح يصغي الى ارتطام النهر بالصخور ويراقب الخراط من خلال نافذة حانوته ، ويقرأ الأسماء المألوفة فوق لافتات اعيدت كتابتها حديثاً ، فمس يديه في نافورة السوق وانتظر كي يطفيء ظمأه ، حتى وصل الى نبع آبوت الذي كان ما زال يتدفق غامضاً كما في الماضي من الطابق الأدنى في دار عتيقة وينساب بين كتل الاحجار في ضوء منبعه المعتم الغريب الصفاء ، توقف طويلا الى جوار النهر ، انحنى على الحاجز الخشبي ، مطلا على الأعشاب المائية القاتمة المسدلة الشعر ، والأسماك الرشيقة السوداء التي راحت تحوم في سكون فوق أرضية من الحصى المترجرج ، سار فوق جسر المشاة القديم ، وحينما وصل الى منتصفه ثنى ركبتيه على نحو ما كان يفعل صبيا ليستشعر الارتداد الرقيق اللين للهيكل الخشبي .

سار الهوينى دون أن ينسى شيئاً ، لا شجرة الزيزفون ، ولا البقعة الصغيرة المعشبة الى جوار الكنيسة ، ولا بركة الطاحونة العليا التي كانت يوما مسبحه الأثير ، توقف خارج الدار الصغيرة التي عاش فيها أبوه منذ زمان بعيد ، ولبعض الوقت أسند ظهره برفق الى الباب العتيق ، دلف الى الحديقة ، تطلع عبر سور الاسلاك الفظ الى حديقة خضراء غرست حديثاً ، لكن الدرج الحجري المتآكل وأشجار السفرجل القصيرة المستديرة كانت لا تزال على حالها ، هنا عاش نولب قبل طرده من المدرسة اللاتينية اسعد أيام حياته ، هنا عرف السعادة الكاملة والتحقق ، المباهج بغير مرارة ، عذوبة ثمار الكرز المختلسة ، وفرحة رعاية حديقته الصغيرة ومراقبة الزهور وهي تنمو ، زهور المنثور البديعة ، اللبلاب المرح ، زهور الثالوث الرقيقة المخملية ، وأقفاص الأراني ، والمشغل الذي صنع فيه الطائرات الورقية وأنابيب المياه من فروع اليلسان المجوفة والعجلات الدوارة من كراة الخيط مع قطع من ألواح الخشب كبديل للمغدف ، عرف القطط فوق كافة هذه الأسقف ، تذوق الفاكهة في كافة الحدائق ، تسلق كل الأشجار ، وصنع لنفسه وكنات خضراء للأحلام فوق أغصانها ، ان هذا الجزء من العالم ينتمي اليه ، عرف كل بوصة فيه وعشقها ، حوى كل منحدر وشجيرة معنى بالنسبة له وكان لديه ما يرويه له ، حدثه كل موسم مطير وكل جليد هطل ، عاش والهواء والأرض يستجيبان لاحلامه ورغباته ، وحتى اليوم

بدا لنولب ان العالم ينتمي اليه بقدر ما ينتمي لأي من اصحاب هذه الدور والحدائق ، أيهم يمكنه ان يزعم انه يقدرها اكثر منه او يجد فيها ذكريات تفوق ذكرياته ؟

كان بمقدوره ان يرى بين الأسطح القريبة علية مثلثة ، حادة وسامقة ، في تلك الدار الضيقة كان هاسيس الدباغ يقطن ، هناك أرخت همسات نولب الرقيقة الأولى مع الفتيات سجف لنهاية على العاب وافراح طفولته ، عديدة هي الأمسيات التي حركت بداخله لواعج الهوى ، وهو يغادر تلك الدار ، ويشق طريقه الى بيته عبر الشارع المتفاقم الظلمة ، هناك نثر جدائل ابنة الدباغ المضفورة ، وهناك اصابة الدوار تحت وطأة قبلات فرانزيسكا ، لسوف يلقي نظرة هناك في وقت لاحق هذا المساء ، او ربما في اليوم التالي ، اما الآن فان هذه التذكارات لم تكن تجتذبه كثيراً ، وكان يسعده لو أنه بذلها جميعاً لقاء ذكرى ساعة واحدة من الزمن الذى سبقها : طفولته .

وقف ساعة او ما يفوق الساعة الى جوار سور الحديقة متطلعاً ، لم يكن ما رآه هو الحديقة الحديثة الغريبة التي بدت بالفعل جرداء وخريفية المظهر بشجيرات توتها اليافعة ، كان يرى حديقة ابيه وحوض زهوره الصغير ، الأزلية التي غرسها في احد الفصح ، واشجار البلسم البلورية واكوام الحصى الصغيرة التي كان يودعها السحالي التي امسك بها مرات ومرات دون ان يعزيه شيء عن أن أيا منها لم يمكث معه ليصبح حيوانه الأليف ، لكنه كان

يظل دائماً في غمار لهفته وامله الذي يملأ جـوانحه حينـما يمسك بواحدة جديدة ، اما اليوم فانه على استعداد للتخـلي عن كافـة الدور والحدائق ، كل الزهـور والسحالي والـطيور التي يضمهـا العالم من اجل زهرة واحدة من زهور الصيف التي كانت تتفتح عن اكمامها الغالية ببطء بالغ في حديقته الصغيرة ، وشجيرات الكميش العتيقة التي يذكر كلا منها تمامـا ، مضت جميعا ، لم تكن خالدة ولا تطالها يد التدمير ، لقد انتزعها احـدهم واطلق فيها يد الحريق شجراً وجذوراً وأوراقاً ذابلة احترقت كلها معاً ولم يحزن عليها أحد .

كثيراً ما جاء ماشولد لزيارته هنا ، الآن اصبح طبيباً . سيداً مهذباً يقود عربة ليعود المرضى ، نعم ، انه لا يزال رجلاً طيبـاً جـاداً ، لكنه هـو كذلـك ، ذلك الـرفيق القوي الأريب : من يكون بالمقارنة بالفتى الصريح الحمي البالغ العاطفية الذي عرفه آنذاك ؟ هنا اوضح له نولب كيف يصنع مصايد للذباب وابراجاً من الواح الخشب للجنادب ، كان معلم ماشولد وصديقه الأكبر سناً والأعظم مهارة الذي يحظى باعجابه .

شاخت شجرة الليلك في حديقة البحار ، ذبلت ، غطتهـا الطحالب ، حطت يد الخراب على حديقة الدار المغطاة ، وايـا كان ما أقاموه مكانها فانه لا يمكن اطلاقاً ان يكون جميلاً وبهيجاً ومحكماً كما كانت .

كان الليل يسدل استاره والجو يزداد برداً حينما غادر نولب ممر الحديقة النامي العشب ، في برج الكنيسة الجديد الذي غير وجه البلدة قرع جرس عاليا .

دلف عبر بوابة المدبغة ، كان وقت العمل قد انقضى ولم يكن هناك احد في الفناء ، مر دونما صوت بأرض الدباغة الرطبة بين الحفر حيث كانت الجلود مغموسة في المواد الكاوية ، توقف عند السور المنخفض الذي كان النهر يتدفق خلفه بين الصخور المغطاة بالطحالب ، ذلك كان الموضع الذي جلس فيه ذات أصيل مع فرانزيسكا واقدامهما العارية تصطدم في الماء .

راح نولب يحدث نفسه ، لو انها لم تجعلني انتظر عبثاً لتغير كل شيء ، كانت لدي القوة والارادة حتى دون المدرسة اللاتينية والجامعة لأجعل من نفسي شيئاً يعتد به ، ما أوضح وابسط ما كانت عليه الحياة ! لقد القى بنفسه بعيداً وفقد الاهتمام بكل شيء ، لم تطالبه الحياة التي سقطت مع مشاعره بأي شيء ، عاش لا منتمياً ، كسولاً ، جواباً للآفاق ، يحظى بالمحبة في صور الرجولة ، ويعاني الوحدة في مرضه وسنوات كهولته .

حل به الاعياء ، اقتعد السور ، وراح النهر يغمغم معتماً في أفكاره ، اضاء النور في نافذة تعلوه ، محذراً إياه من ان الوقت قد تأخر ، وانه لا ينبغي ان يعثر عليه هنا ، انسل في صمت خارج فناء الدباغة ، ومضى عبر البوابة ، احكم معطفه حوله ، وفكر

في الرقاد ، كانت لديه النقود التي اعطاه الطبيب اياها ، بعد تأمل قصير يمم شطر نزل ، كان بوسعه ان يمضي الى نزل الملاك او البعجة ، حيث كان معروفاً ، ويمكن ان يلقي اصدقاءً ، لكنه لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بذلك .

كانت هناك مشاهد عديدة جديدة في البلدة من شأن كل منها ان يثير اهتمامه ، اما الآن فلم يكن يرغب في مشاهدة الا ما يعيد ذكرى الأيام الخوالي ، ثم حينما علم ان فرانزيسكا قد وافتها منيتها شحب كل شيء وبدا له انه جاء الى هنا بسببها وحدها ، كلا ، لا معنى للتجوال في الدروب والطرقات حيث يحييه كل اولئك الذين عرفهم بصيحات الرثاء الهزلية ، وحينما تصادف مروره بالمفوضية الصحية في احد الشوارع الضيقة خطر له فجأة ان القائمين على شؤون المستشفى قد يرسلون من يبحث عنه ، مضى الى المخبز وابتاع لفتين من الخبز دسهما في جيوب معطفه ، لم تكن الظهيرة قد حلت بعد حينما غادر البلدة سالكاً طريقاً يؤدي الى الجبال .

عالياً في سمت البلدة ، وعند المنعطف الأخير قبيل الغابة ، اقتعد رجل مترب كومة من الصخور ، مضى في تكسير الصخور الرمادية المائلة الى الأزرق الى قطع صغيرة بمطرقة طويلة اليد .

حدق فيه نولب ، حياه ، وتوقف .

« طاب يومك » قالها الرجل ومضى في تكسير الصخور دون

ان يرفع رأسه .

غامر نولب بقوله : « يبدو أن الطقس يوشك على التغير » .

دمدم الحجار « ربما » رفع ناظريه ، فبهرهما الضوء الساطع « الى اين تمضي ؟ » .

قال نولب : « روما ، لأرى البابا ، اهي بعيدة ؟ » .

ـ « لن تبلغها اليوم اذا توقفت كل بضع خطوات ورحت تضايق الناس فيما هم يحاولون العمل ، لن تقطع الرحلة في عام » .

«ربما لا ، طيب ، لست في عجلة من امري والحمد لله، أنت عامل مجد يا اندريز شايبل » .

ظلل الحجار عينيه بكفه ، قال مفكراً « أنت تعرفني ، واعتقد أني أعرفك كذلك ، عليّ فقط ان اتذكر الاسم » .

ـ « لنفترض انك سألت المالك العجوز عن الكسارة لقد اعتدنا ان ننتظر هناك في التسعينات ، لكني اظن ان أجله قد وافاه »

ـ « وافاه منذ سنوات ، آه ، الآن تذكرته ، أنت نولب ، اجلس برهة وليطب يومك ! » .

جلس نولب ، كان قد تسلق الجبل مسرعاً فشق عليه التقاط أنفاسه ، الآن وهو يطل الى أسفل أدرك كم كانت البلدة

الصغيرة جميلة في الوادي ، النهر الأزرق المتألق ، مجموعة الأسقف البنية المائلة للحمرة ، جزر الخضرة الصغيرة المؤلفة من الأشجار فيما بينها .

قال لاهثا : « لقد سارت الأمور بك على ما يرام هنا » .

ــ « لا بأس ، ليس بوسعي ان أشكو ، لكن ماذا عنك ؟ لست المتسلق الذي كنته ؟ أنك تصدر صفيراً مخيفاً ، يا نولب ، اكنت تزور البلدة العتيقة مرة اخرى ؟ » .

ــ « هذا صحيح ، يا شايبل وللمرة الأخيرة فيما أظن » .

ــ « ماذا تعني ؟ » .

ــ « رئتاي اعتلتا ، الا تعرف علاجاً ؟ » .

ــ « لو انك مكثت في الدار ، أيها الصديق ، وعكفت على عملك ، لو كانت لك زوجة وأطفال وفراش دافيء في الليل لربما كنت اليوم على ما يرام ، لكنك تذكر كيف كان شعوري نحو هذا الأمر ، اما الآن فقد فات أوان ذلك ، هل الأمر سيء الى هذا الحد ؟ » .

ــ لست ادري ، طيب ، نعم انني اعلم ، انه اسوأ ياشايبل ، والأمر يزداد كل يوم تفاقماً ، من الخير انني وحدي في هذا العالم لا اثقل كاهل احد » .

ــ « أيا كان النحو الذي تتقبل به الأمر فانه يظل من شأنك

أنت ، لكني آسف لسماع ذلك » .

« لا حاجة بك للأسف ، لسوف نلقى حتفنا جميعاً ذات يوم ، ذلك يقع حتى للحجار ، نعم أيها المعمر ، ها نحن نجلس هنا دون ان يجد احدنا الكثير مما يبعث على الابتهاج ، كانت لديك نوايا مختلفة ذات يوم ، ألم تكن ترغب في العمل بالسكك الحديدية ؟ » .

ـ « أوه ، ذاك تاريخ عتيق » .

ـ « وأطفالك ؟ هم بخير ؟ » .

ـ « جاكوب يعمل الآن فيما اعلم » .

ـ « أحقاً ؟ ما أسرع ما يمر الزمن ، طيب ، لسوف أمضي الآن » .

ـ « ولم العجلة ؟ بعد كل هذه السنين ، اصغ ، يا نولب ، هل بوسعي مساعدتك ؟ ليس لدي الكثير ، ربما نصف مارك » .

ـ « بوسعك انفاقه ، شكراً على أية حال » .

أراد ان يضيف المزيد ، لكن صدره آلمه على نحو تعس ، فلفه الصمت ، سقاه الحجار جرعة من زجاجة عصير ، ظلا لبعض الوقت يحدقان في البلدة ، كانت قناة الطاحونة تأتلق في سنا الشمس وعربة تدلف عبر الجسر الحجري ، وعبر الحاجز راح سرب من الأوز الأبيض يسبح في تراخ جيئة وذهاباً .

مرة اخرى قال نولب « سأمضي ، أشعر بالراحة الآن » .

قال ببطء : « تعلم انه كان بوسعك ان تغدو افضل من جواب آفاق بائس ، ذلك عار ، لم اكن ابداً ممن يرتلون المزامير ، لكني أؤمن بما جاء في الانجيل ، خير لك ان تفكر في الأمر كذلك ، عليك ان ترد مدافعاً عن نفسك ، ولن يكون ذلك يسيراً ، كانت لك مواهب تفوق بكثير ما لدى آخرين فلم تستفد بها ، لا تغضب مني لقولي ذلك » .

ابتسم نولب ، عاد وميض العابث البريء القديم الى مقلتيه ، ربت على كتف شايبل بود ونهض واقفاً .

ـ « لسوف نرى ، يا شايبل ، ربما لن يسائلني الرب عن السبب في أنني لم اصبح قاضياً ، ربما يكتفي بالقول : « اعدت ثانية ، ايها الأحمق العجوز ؟ » ويعهد الي بعمل يسير كرعاية الأطفال او نحو ذلك » .

هز اندريز شايبل منكبيه تحت قميصه الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق ، قال :

« لا جدوى من الجد معك ، تعتقد ان الرب سيلقي بالنكات حينما يقبل نولب » .

ـ « على الاطلاق ، أو ربما فعل » .

ـ « لا تتحدث على هذا النحو » .

تصافحا ، دس الحجار عملة معدنية صغيرة كان قد استخرجها خفية من جيب سرواله في كف نولب ، اخذها نولب دونما اعتراض لرغبته في عدم تبديد سرور صديقه العجوز .

ألقى نظرة اخيرة على الوادي الذي شهد مولده ، اومأ لاندريز شايبل محييا، ثم هرع مبتعداً ، اذ امسكت بخناقه نوبة من السعال ، سرعان ما دار حول المنعطف ، واختفى خلف الغابات .

عقب اسبوعين اقبل الشتاء فجأة ، بعد ان كانت فترة سادها الضباب البارد قد تراجعت امام ايام مشرقة زانتها الجريسات المتأخرة عن موعدها والعليق الناضح البارد ، في البداية حومت أيام ثلاثة من البرد المرير ، ثم خفت حدة البرد ليهطل الجليد ثقيلا متواترا .

طول هذا الوقت كان نولب يضرب على غير هدى ، دون ان يغادر الأرض التي شهدت مولده اطلاقاً ، شاهد شايبل مرتين وهو مختبيء في الغابات ، لكنه لم يفه ببنت شفه ، كان لديه الكثير مما يتعين التفكير فيه ، خلال مسيراته الطويلة الهائمة غرق اكثر فأكثر في فخ حياته الضائعة كما يغرق المرفأ في اجمة من العليق وبعد لما يعثر على معنى او مصدر للعزاء ، حينما شعر بالمرض يتخطفه والاعياء يجتاحه فكر في العودة الى جيربرسو وطرق باب المستشفى لكنه بعدما قضى اياما وحيدا وشاهد البلدة قابعة في

الوادي بدت الأصوات التي تصاعدت اليه غريبة ومعادية ، كان يعلم ان المدينة لم تعـد مكانه، من وقت لآخر كان يبتاع بعض الخبز من احدى القرى ، وكانت ثمار البندق وفيرة ، قضى لياليه في اكواخ الحطابين او في الحقول مفترشاً القش .

الآن كان في طريق عودته من جبل الذئب في غمار العاصفة الثلجية كالا ومنهكا وان كاد قادرا على الحـركة ، يجـر قدميـه ، يفحص كل غيضه وبقعة تجردت من الأشجار كأنما يمتص اقصى ما بقي له من زاد الأيام الضنينة ، رغم مرضه ونصبه لم يفقد انفة وعيناه الحدة ، فمضى يتشمم ويحدق كأنـه من كلاب الصيـد ، راح يسجل كل مرتفع ومنخفض من الأرض ، كل نسمة ، كل اثر لحيوان رغم انه لم يعد ثمة هدف يلوح امامه ، تبددت ارادته وراحت قدماه تتحركان تلقائياً .

كان في غمرة أفكاره يحدث الرب ولأيام عديدة دون انقطاع كانا معاً لم يداخله الروع ، كان يعلم ان الـرب لا يستطيـع ان يلحق الأذى بنا ، كانا يتحدثان عن عبث حياة نـولب ، وكيف ان الأمور كان يمكن تدبيرها على نحو آخر ولم كـان هذا الأمـر وذاك على نحو ما وقع ولم يجر بشكل آخر .

راح نولب يكرر مـرارا قولـه : « كان ذلـك حينما كنت في الرابعة عشرة وتخلت فرانزيسكا عني ، كل شيء كان لا يزال بعد في حيز الامكان ، ثم تهشم شيء ما بداخلي ، منذ ذلك الحين

اصبحت بلا نفع ، كان ينبغي ان تدعني القى حتفي في الرابعة عشرة ، ذلك كـان الخطأ الكبـير ، كان يمكن حينئـذ ان تكون حياتي جميلة ومكتملة كتفاحة ناضجة » .

كان الرب يبتسم طـوال الوقت وفي بعض الأحيـان يختفي وجهه في الجليد الهاطل .

قال مؤنبا : « على رسلك يا نولب ، فكر في شبابك ، ذلك الصيف في اودينفالد والأوقـات التي امضيتها في لخشتيتـين ، الم ترقص كالظبي ؟ الم تستشعر بهجة الحياة تجتـاح كل عـظمة من عـظامك ؟ الم تغن وتعـزف الاكورديـون حتى لمعت الدمـوع في اعين الفتيات جميعا ؟ اتذكر ايام الآحاد في بويرزفيل ؟ وهنريت حبيبتك الأولى ؟ اكان ذلك عبثاً ؟ » .

امعن نولب التفكير ، توجهت افراح شبابه في حسنها المعتم مثل نيران نائية تتقـد في الجبال ، كـان لها طعم العسـل والنبيذ الحاد العذب والزخـم العميق الذي لـريح ليلة دافئـة في مقدم الربيع ، يـال الهي ، كم كانت جميلة في الفـرح والحزن ، واي اسى كان يمكن ان يستشعره لو انه فقد يوما واحدا منها .

اقر قائلاً : « نعم ، كانت حيـاة جميلة » رغم ذلك راودتـه رغبة في البكاء وشعر بأنه يوشـك ان يتهاوى مثـل طفل اصابه الأعياء « كانت الحياة جميلة في تلك الأيام ، حقا كان هناك حزن حتى في تلك الأيـام ، وشعور بـالذنب في بعض الأحيـان لكنه

صحيح ان تلك سنوات طيبة ، من المؤكد ان قلة من الرجال قد اخذهم الخمار بعمق ورقصوا في خيلاء او عرفوا ليال للهوى كتلك التي عرفتها ، لكن الأمر كان ينبغي ان ينتهي في ذلك الوقت ، فحتى في تلك الأيام كانت هناك قطرات من المرارة ، اذكر ذلك جيدا ، بعد ذلك تبددت مثل هذه الأوقات الطيبة ، ولم تعد ابداً » .

اختفى الرب في هبة من الريح المثقلة بالجليد ، توقف نولب برهة ليلتقط انفاسه ، بصق قطرة او قطرتين من الدم على الجليد ، فجأة أطل الرب ليرد عليه .

ـ « اصغ ، يا نولب ، الست ناكراً للجميل هوناً ما ؟ ان نسيانك يضحكني ، لقد تذكرنا الوقت الذي كنت فيه ملك ساحة الرقص ، وتذكرنا هنريت ، وقد اضطررت الى الاقرار بأن ذلك كله كان له معناه وان تلك الأيام كانت طيبة جميلة وجلبت لك السعادة ، لكن ، ايها العزيز ، اذا كانت تلك مشاعرك نحو هنريت فان عليك ان تفكر في ليزابيث ، او قد نسيتها تماما ؟ » .

مرة اخرى امتد ملمح من الماضي امام ناظري نولب كأنه آماد جبل بعيد ، على الرغم من ان تلك الفترة لم تكن باعثة تماما على السعادة وخالية من المتاعب كالأيام الخوالي الا انها تألقت بوهج اعمق وبالسنا الهادىء الذي يشع من امرأة تبتسم من

خلال الدموع ، انبعثت الأيام التي طال نسيانها والساعات من قبورها وفي قلبها نهضت ليزابيث بمقلتين جميلتين أترعتا حزنا وقد احتضنت وليدها .

ناح نولب : « كنت رجلا سيئاً ! لم يكن من حقي مواصلة الحياة بعد موت ليزابيث » .

لكن الرب قاطعه ، وبنظرة نفاذة من عينيه البراقتين قال : « كفى ، يا نولب ، لقد آذيت ليزابيث ايذاءاً جما ، وليس بوسعنا ان نغير هذا ، لكنك تعلم تماما ان الطيبة والرقة اللتين منحتهما لها تفوقان الأذى الذي احدثته وانها لم تكن غاضبة منك للحظة ، ايها الطفل ! الا تستطيع ان تدرك ما يعنيه هذا كله ؟ الا يمكنك ان تفهم انه كان عليك ان تكون جواب آفاق شريد لتجلب للناس قليلا من حماقة الطفولة ومرحها حيثما مضيت ولتجعل مختلف انماط البشر يحبونك قليلا ، ويداعبونك بعض الشيء ويشعرون بالعرفان هونا ما تجاهك ؟ » .

بعد صمت قصير اقر نولب ذلك هامساً : « بلى ، لقد شرعت في التفكير بالأمر ، أصبت ، لكن ذلك كله كان في الأيام الخوالي حينما كنت في شرخ الشباب ، لم اتعلم من هذا كله فأصنع من نفسي شيئاً ؟ كان الوقت لا يزال متاحا » .

كف الجليد عن التساقط ، توقف نولب مرة اخرى ليستريح ، اراد ان يزيح الجليد عن قبعته وملابسه ، لكنه لم

يستطع استجماع قواه ، كان مرهقا وقد استغرقته الأفكار ، الآن وقف الرب امامه مباشرة ، كانت عيناه المتسعتان تتألقان كالشمس .

قال الرب : « نح ذلك عنك ، ما جدوى الشكوى ؟ الا تدرك انه ايا كان ما وقع فقد كان طيبا وصوابا وانه ما من شيء كان ينبغي ان يحدث على خلاف ذلك ؟ هل ترغب الآن حقا في ان تكون سيدا مهذباً او حرفيا ماهرا له زوجة واطفال يقرأ جريدة الى جوار المدفأة ؟ الن تفر للتو لترقد في الغابات مع الثعالب وتصنع الشراك للطيور وتمسك بالسحالي ؟ » .

انتفض نولب مرة اخرى دون ادراك لترنحه تحت وطأة الاعياء ، شعر الآن بسعادة اكبر تغمره ، راح يومىء في عرفان مع صدور كل ما يقوله الرب .

قال الرب : « اصغ ، لقد شئتك على ما انت عليه دونما اختلاف ، كنت جوابا للآفاق باسمي ، وحيثما مضيت كنت تجلب للمستقرين قليلاً من الحنين الى الحرية ، وباسمي أتيت الهنات وسخر الناس منك ، لقد سخروا مني في شخصك واحبوني في ذاتك ، انت طفلي واخي وبضعة مني ، ما من شيء فرحت به وعانيته لم افرح به ولم اعانه معك » .

قال نولب وهو يومىء في تثاقل : « نعم ، نعم ، هذا صحيح ، في اعماقي كنت اعرفه دائماً » .

رقد على الجليد ، غدت اطرافه المنهكـة خفيفة ، ابتسمت عيناه المسجورتان .

حينما اغلقهما ليغفو قليلا كان لا يزال يسمع صوت الرب ، وهو يتحدث ، ولا يزال يتطلع الى عينيه المشرقتين .

تناهى صوت الـرب متسائـلاً : « هكذا فليس لـديك مـا تشكوه اكثر من هذا ؟ » .

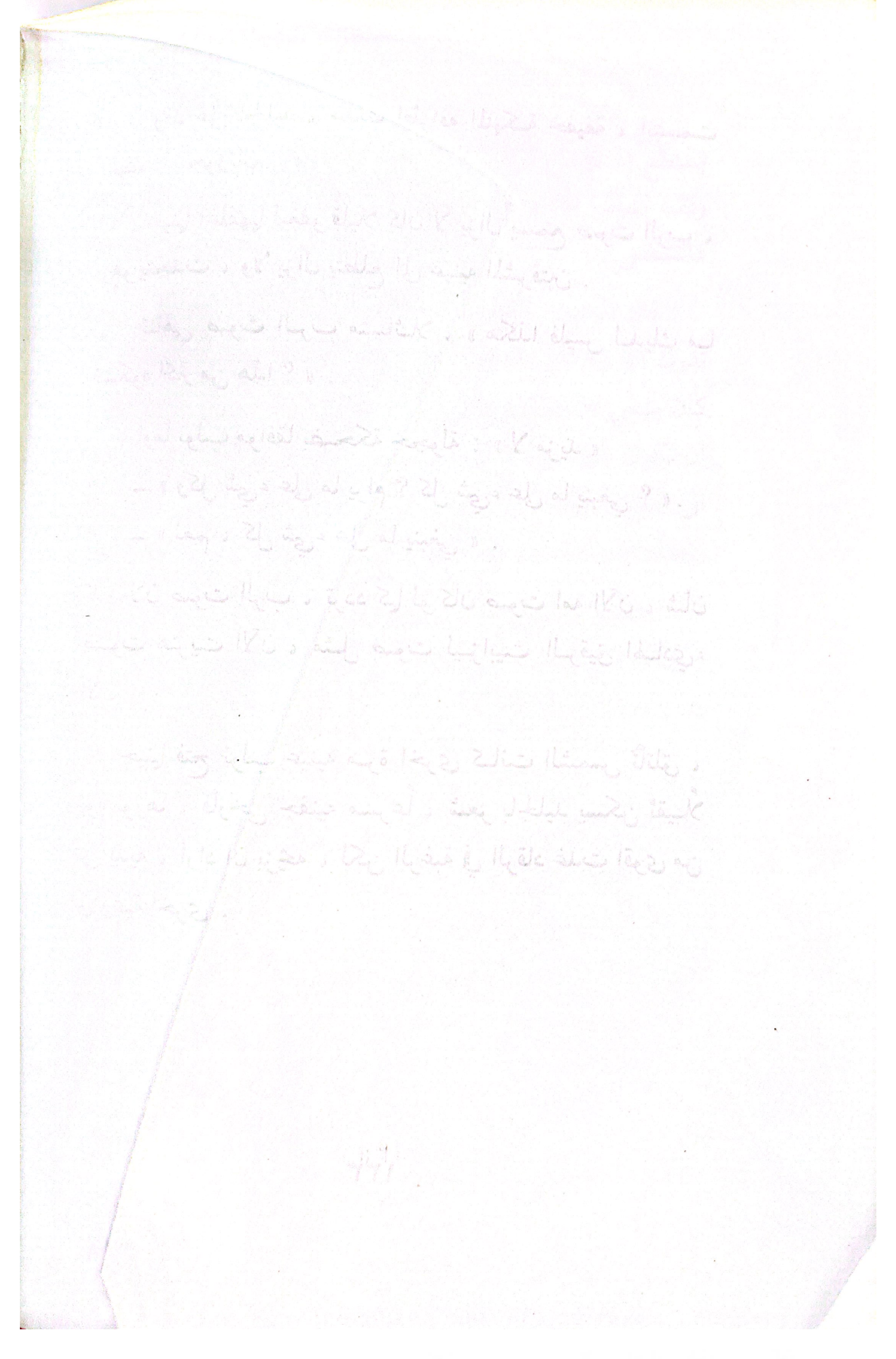
اومأ نولب موافقا بضحكة خجولة : « لا مزيد »

ـ « وكل شيء على ما يرام ؟ كل شيء على ما ينبغي ؟ » .

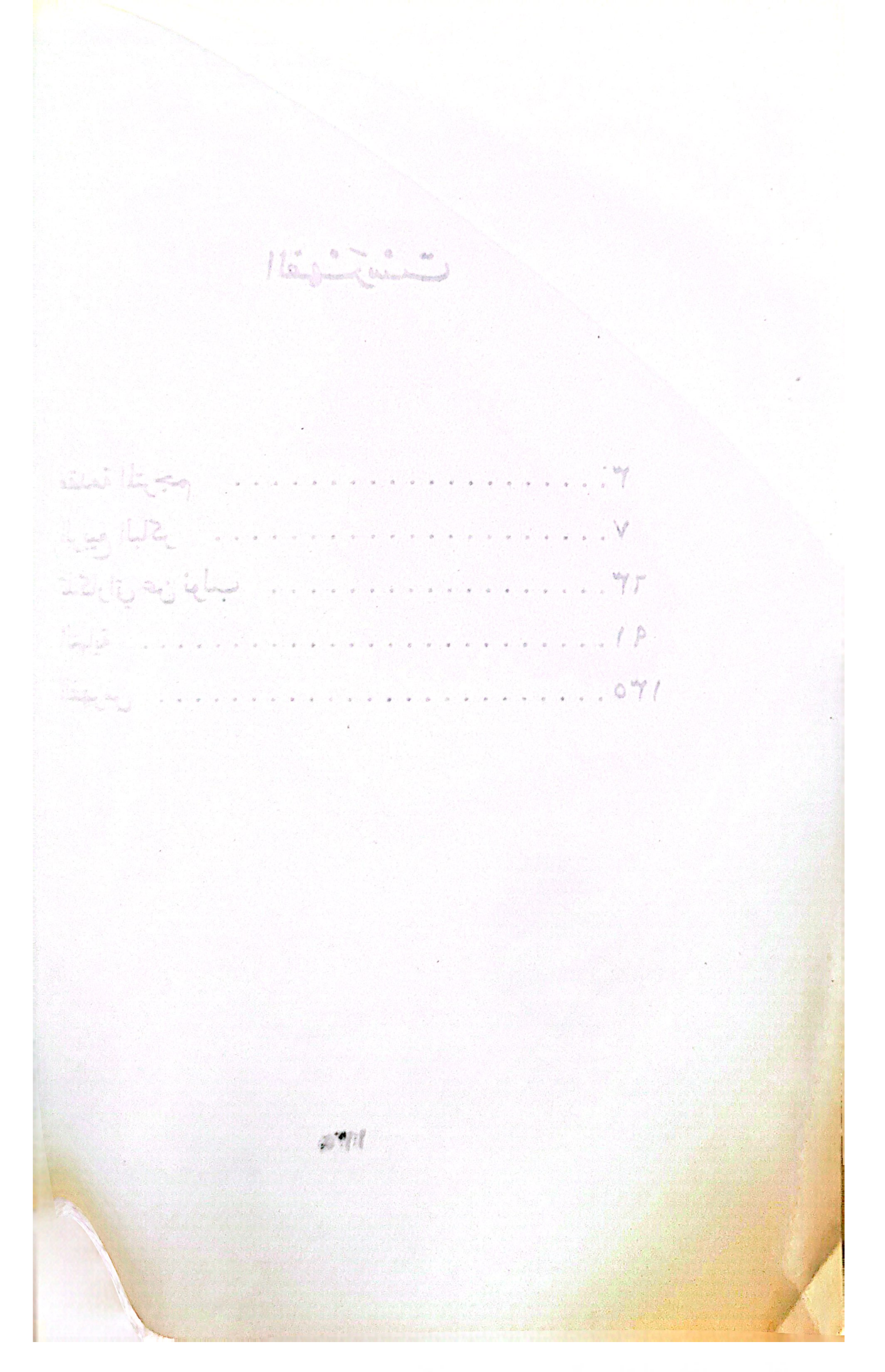
ـ « نعم ، كل شيء على ما ينبغي » .

لان صوت الرب ، تردد كما لو كان صوت امه الآن ، شأن صوت هنريت الآن ، مثـل صوت ليـزابيث الـرقيق الهـادىء الآن .

حينما فتح نولب عينيه مـرة اخرى كـانت الشمس تأتلق ، بهره نورها ، فأرخى جفنيه مسرعاً ، شعر بالجليد يسكن ثقيـلاً على يديه ، أراد ان يزيحه ، لكن الرغبة في الرقاد غدت اقوى من اي رغبة اخرى .



الفهرست



هـذا الكتاب

- يـروي قصـة حيـاة جـوال يمضي ليمنـح الـدنيـا ابتسامة صادقة ولحظات صفاء.

- انها قصة المجابهة بين البساطة الظاهـرة والتعقيد الخفي.

- قصة اغنت الرواية العالمية بمعانٍ انسانية واطفت عليها أنماطاً من التعايش الاجتماعي.

- انها نظرة الى الحياة الأسمى والأرقى.

الناشر